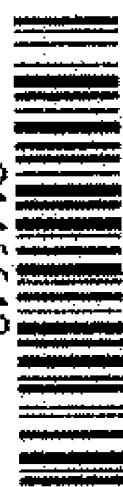




Bibliotheca Alexandrina



0146642

نجيب محفوظ

المكتبة العامة لكتبة الإسكندرية
رقم القيد : 349
اسم الكتاب ()
رقم التسجيل : 15911

قلب الليل



الحائز على جائزة الدولة التقديرية
General Organization of the Alexandria Library (G.O.A.L.)
وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي أنجال
سميد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع مستطام خندق

قلت وأنا أتفحصه باهتمام ومودة :

— انى أتذكرك جيدا •

انحنى قليلا فوق مكتبى وأحد بصره الغائم •
وضيح لى من القرب ضعف بصره ، نظرتة المتسولة ،
ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور ، وقال بصوت خشن
على النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر
حجم الحجرة الغارقة فى الهدوء :

— حقا ! •• لم تعد ذاكرتى أهلا للثقة ، ثم ان

بصرى ضعيف ••

— ولكن أيام خان جعفر لا يمكن أن تنسى ••

— مرحبا ، اذن فأنت من أهل ذلك الحى !

قدمت نفسى داعيا اياه الى الجلوس وأنا أقول :

— لم تكن من جيل واحد ولكن ثمة أشياء لا تنسى •

فجلس وهو يقول :

— ولكنى أعتقد أننى تغيرت تغيرا كليا وأن الزمن

وضع على وجهى قناعا قبيحا من صنعه هو لا من

صنع والدى !

وقدم نفسه بفخار دون حاجة الى ذلك قائلا :

— الراوى ، جعفر الراوى. ، جعفر ابراهيم سيد

الراوى ••

لم تخف على أسباب اعتزازه بالاسم ، وأكد ذلك
التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته
المتعالية . قال :

— أنك تعود بي الى ذكريات عزيزة ، أحياء خان
جعفر والحسين المقدسة ، أيام الهناء والتجربة ..
— وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة ..
فضحك عاليا . اهتز جسده الطويل النحيل حتى
أشفقت على بدلته الرثة أن تتمزق ، ورفع لى وجهه
ذا الجلد المذبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر
رأسه الأبيض المتلبد ، وقال :
— نحن أهل ، ومن حقى أن أستبشر خيرا لقضيتى
العادلة !

فسأله مؤجلا الخصام :

— تشرب قهوة ؟

فقال بلا أدنى تردد وبجراحة :

— لنبدأ بسندوتش فول ثم تجيء القهوة بعد ذلك ..
وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتى ساورنى الأسى ،
واستقرت رائحته فى أنفى خليطا من العرق والتبغ
والتراب . ولما أكل وشرب اعتدل فى جلسته وقال :
— أشكرك ، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك ،
لا شك أنك أطلعت على طلبى بحكم وظيفتك ، فما رأيك ؟
فقلت بأسف :

— لا فائدة ، نظام الوقف لا يسمح بشيء من ذلك ..
— ولكن الحق واضح مثل الشمس .

- الوقف واضح أيضا ..
- كان القانون ضمن ثقافتى ولكنى أعتقد أن كل شيء يتغير ..
- إلا الوقف فانه حتى اليوم لم يتغير ..
- فهدر صوته الخشن صائحا :
- لن يضيع حقى أبدا ، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف .
- ولما وجد منى هدوءا ياسما تراجع الى الهدوء وقال :
- دعنى أقابل المدير العام .
- فقلت بلطف :
- المسألة واضحة جدا ، فوقف الراوى أكبر وقف خيرى فى الوزارة ، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الامام الحسين بالاضافة الى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة ، والوقف الخيرى لا يمكن أن يثول الى شخص بحال من الأحوال .
- قاطعنى بحدة :
- ولكننى حفيد الراوى ، وريثه الوحيد ، وانى فى مسيس الحاجة الى مليم على حين أن الامام الحسين غنى بجنات النعيم .
- ولكنه الوقف !
- سأقيم دعوى .
- لا فائدة من ذلك .
- سأستشير محاميا شرعيا ، ولكن تلزمنى

استشارة مجانية لأن النقنود كائنات مجهولة في
عالمى ..

— لى أكثر من صديق بين المحامين الشرعيين ،
وممكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم ، ولكن لاتضيع
وقتك جريا وراء أمل لا يمكن أن يتحقق .

— انك تعاملنى كطفل !

— معاذ الله ولكننى أذكرك بحقيقة لا جدال فيها .

— ولكننى حفيد الراوى ، واثبات ذلك يسير على ..

— المهم أن تركة الراوى أصبحت وقفا خيريا ..

— وهل من العدل أن أترك أنا للتسول ؟ ..

— المتفق عليه فى الإدارة وهو المتبع فى مثل ظرفك
أن تقدم طلبا بالتماس صرف اعانة شهرية من الخيرات
بشرط أن تثبت نسبك

جعل يردد : اعانة شهرية ! .. يا لهم من مجانين
ظالمين .

وواصل قائلا :

— صاحب الوقف يلتمس احسانا ! .. هذا جنون
.. وما مقدار الاعانة ؟

صمت لحظات مترددا ثم قلت :

— قد تصل الى خمسة جنيهات .. وقد تزيد ..

قهقه ساخرا كاشفا عن أسنان مثرمة سوداء ، ثم
قال :

— صدقنى ، سأكافح ، لقد حملت حياة لا يقدم على

حملها الجن ، فلتكن معركة ، لن أكف عن القتال حتى
أنال حقي الكامل من تركة جدى اللعين !
فلم أتمالك من الابتسام وقلت :
- ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير .
فضرب حافة مكتبي بقبضته المعروقة وقال :
- لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد . .
- ولماذا نسيك ؟

قبض على ذقنه دون أن يجيب . شعرت بأن الزوبعة
ستتقشع عاجلا أو آجلا ، وأن التماساس الاعانة
سيكتب . ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات
والأمراء والملوك . ويقىنى أنه لا يجحد أحد ذريته
بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر ؟!

ومد بصره الضعيف الى لا شىء وراح يقول :
- وقف خيرى ، حرمان من الميراث ، هكذا فعله
دائما مزيج من الخير والشر ، ها هو يمارس سلطته
ميتا كما مارسها حيا ، وها أنا أكافح فى موته كما
كافحت فى حياته . . وحتى الموت . .

توثقت العلاقة بينى وبين جعفر الراوى . كان فى وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة ، وكان يشجعنى على المغامرة شعورى بأنها عابرة سريعة الزوال ، فشخصيته المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام ، وارضاًؤها يسير هين . ثمّة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتنى اليه . هناك على سبيل المثال الذكريات القديمة وافقتانى بيت الراوى وحكاياته ، وما تردد يوماً عن مغامرات جعفر وجنونه . وهناك أيضاً ميل الى رغم فظاعة منظره وراثى له فى خاتمته التعيسة . وكان ذاقامة مديدة ، ولولا البؤس - وربما الأمراض ؟ - لنضحت شيخوخته بروعة وجلال .

سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع فى شارع محمد على :

- كيف تعيش يا جعفر ؟
- أخطب فى الشوارع نهاراً وحتى منتصف الليل ..
- وأين تسكن ؟
- أنبت فى الخرابة ..
- الخرابة !؟

- هي ملكى بوضع اليد ، وهي ما تبقت من بيت
 جدى القديم !
 وكنت قد انقطعت عن الحى العتيق منذ عهد بعيد
 فلم أعرف أن البيت تحول الى خرابة .
 - أليس لك أهل ؟
 - لعلهم يملئون الأرض ..
 ابتسمت . فقال جادا :
 - لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون ..
 - أتعنى ما تقول ؟
 - رغم ذلك فانى وحيد ..
 - يا لها من طريقة فى الحديث .. !
 - اسمع ، رد الى الوقف وأعدك بأن ترانى محاطا
 بالابناء والأحفاد ، والا فستجدنى دائما وحيدا
 طريدا ..
 - أراك تحب الألفان ..
 فضحك قائلا :
 - انى أحب اللقمة الحلوة والوقف ، كما أحب لعن
 الواقفين ..
 - أليس لك مورد رزق من أى نوع فى شيخوختك ؟
 - لى أصدقاء قدماء ، أعترض أحدهم فيمد يده
 بالسلام ويدس فى يدي ما يجود به ، اننى أتمسك فى
 التراب ولكننى هابط فى الأصل من السماء .
 قلت بأسى :
 - حياة غير لائقة ، اكتب الالتماس فورا ..

— هي الحياة الانسانية الأصيلة ، جربها بشجاعة
ان استطعت ، اقتحم الأبواب بجرأة ، لا تترسكن فكل
ما تحتاجه هو حق لك ، هذه الدنيا ملك للانسان ، لكل
انسان ، عليك أن تتخلي عن عاداتك السخيفة ، هذا
كل ما هنالك .

— ومع ذلك فانك تتمنى أن تسترد تركة جدك ؟
فقهقه قائلاً :

— لا تحاسبني على التناقض ، اني حزمة من
المتناقضات ، ولا تنس أنني عجوز ، ولا تنس أنني
اخوض معركة مع جدي منذ قديم .

— أود أن أعرف لماذا حرمتك ميراثك ؟

— هذه هي المعركة ، لا تتعجل ، لست بسيطاً كما
يقرأى لك ، كثيرون ينخدعون في ، حتى الصبية يجرون
ورائى وأنا أتخبط في الشوارع ، ماذا يظنون ؟ ، انى
أحب الكلام ، ولما كنت وحيداً فانى أكلم نفسى ، ماذا
يظنون ؟ ، لقد تقدم بى العمر ولما تكف الأسئلة عن
مطاردتى ، صدقنى فاننى شخص غير عادى ، حتى فى
الجبيل كنت غير عادى ، ولا فى القصر ولا فى الخرابة ،
ورغم التصعلك والتسول فاننى أقف أمام الحياة
مرفوع الرأس متحدياً ، اذ أن الحياة لا تحترم الا من
يستهيئ بها . . .

جعلت أتأمله باسمه وهو يتحدى الوجود ببذلته
التهتكه وجلده المذبوغ ، ثم تمتمت :
— عفارم عليك !

— وليس الانسان وحده من تعاملت معه فلى صلات عريقة مع الجماد والجن والعفاريت فضلا عن عناصر الحضارة الجوهرية .

ثم غير نغمته فجأة وسألنى :

— هل وقع اختيارك على محام ثقة لنذهب اليه ؟
فقلت متوسلا :

— انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر .

— ألسنت جعفر ابراهيم حفيد سيد الراوى ؟

— بلى . . ولكن لا توجد قضية على الاطلاق . :
قصاح :

— اذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون . .

— هذا أقرب الى الامكان من كسب القضية ، اكتب

الالتماس ولا تبدد الوقت . .

فقال ضاحكا :

— انكم فى الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم

تمدون أيديكم اليها بالاحسان . .

— اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

وغشانا الصمت دقائى ثم قال وكأئما يحدث

نفسه :

— خمسة جفبهات ! . .

— يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح . .

— كلا . . ان المبلغ يكفى للغذاء والسجاير والكساء

. . أما المأوى فكيف أستأجر مسكنا وأنا أملك

قصرا ؟! . . لن أهجر الخرابة . .

— اكتب الالتماس في أقرب فرصة وأرسله الى الوزارة . . .

— لا داعي للعجلة ، دعنى أفكر ، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميا ، ولا يبعد أن أواصل الحياة بلا التماس ولا محام . . . لا داعي للعجلة . . .
— على أى حال فقد عرفت سبيلك . . .

فقال بحدة :

— لا سبيل للتعافى بيننا . . . فأنت ممن يخافون الحياة وأنا ممن يزدرونها ، وجميع ما ترتعد لمجرد تصويره قد عانيت به . . . جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت اليه فوق قدمي . . .

— عظيم جدا يا جعفر . . .

— هل يعجبك كلامي ؟

— جدا . . .

— أتود أن تسمع المزيد منه ؟

— ثق من ذلك كل الثقة . . .

— لقد قدمت لى عشاء فاخرا ، وستقدم لى مساعدات

هامة فى الأيام القادمة ، فضلا عن أننا أبناء حى واحد ، بنا الى مقهى ودود بالباب الأخضر . . .

وسرنا جنبنا الى جنب نحو الحى العتيق حتى اخترقنا القبو الأثرى الى الباب الأخضر . . . وجلسنا ندخن البورى ونشرب القهوة على حين جرى الحديث فى سكون الليل الطويل . . .

هجعت عطفة البساب الأخضر تحت ستار الليل .
 تعود في تلك الساعة أفواج من الشحاذين الى أركانهم،
 ينطلق المجاذيب في جنباتها ، يفوح البخور من
 زواياها . لا غريب يطرقها ليلا الا رواد مقهى ودود
 القلائل ، وجميعهم من مدخني البورى ، قال جعفر :
 — دعنى أحدثك عن عهد الأسطورة ..

— لعلك تقصد الطفولة .

— انى أعنى ما أقول فلا تقاطعنى ، لا توجد طفولة،
 ولكن يوجد حلم وأسطورة ، عهد الحلم والأسطورة ،
 وهو يفرض ذاته في عذوبة فائقة ، وربما زائفة ، بسبب
 من معاناة الحاضر الأليمة عادة ، وهو دوى ضخم في
 وجدانى وعندما أحلله لا أجده شيئا ، وهذا ما يؤكد
 طبيعته الأسطورية ، حسبك أن تعرف أن قطبيه
 الأساسيين — أبى وأمى — لا أكاد أعرف عنهما شيئا
 ذا بال .

— هل غادراك وأنت طفل ؟

— لا أنكر أبى بتاتا ، لا صورة له في ذاكرتى ولم
 يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرنى به ، وقد فارق
 الدنيا قبل أن ينبج غيرى ، ولا يوجد سوى موقف

واحد يشير اليه اشارة غامضة ، موقفه يوم الاحتفال
بالمحمل وراء نافذة تطل على مرجوش ، وأنا ممتط
قفصاه وأنظر من فوق منكبهِ الى الجموع ، والى رأس
المحمل المذهب الذى يتبختر فى مستوى النافذة ، موقف
يدل على العطف والحنان أليس كذلك ؟ ، والمحمل معلم
من معالم الأسطورة أما الجموع فحقيقة من نوع
خاص ، بعثت فى نفسى ذات يوم فى مكتبى بميدان باب
الخلق فهتفت فى وجه « سعد كبير » وقلت ..

قاطعته :

— نحن الآن فى الأسطورة فلا تجاوز حدودها !
— دعنى أتكلم بحرية فانى أكره القيود !
— ولكن الحكاية ستذروها رياح الخواطر فأضل
بين شذراتها !

قهقه قائلاً :

— ألا تسمح لى بأن أعبث بالزمن كما عبث بى ؟ !
حسن ، لنعد الى الأسطورة ، الى الجن الماجن والجماد
اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية ، لنعد
الى الأسطورة ، قلت لك إننى لا أتذكر أبى ولكننى
لا أنسى يد أمى .

— يد أمك ؟

— صبرا ، لقد مات أبى ، كيف ولم ؟ لا أدري ،
ولكنه مات فى ريعان الشباب كما علمت فيما بعد ،
كنت فى الخامسة وربما دون ذلك ، حتى بيت مرجوش
لا أتذكره ، ثمة حجرة يصعد اليها من الدهليز بسلم

ذى درجتين ، وفراش مرتفع يرقى اليه بسلم خشبي
يغرى بالنسب ، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى
لا تمتد لها يدي ، وقطط مدللة ، وجندرة ، وكرار مظلم
تسكنه أنواع شتى من الجن ، وفأر أسود ، ومبخرة ،
وقلة مغروسة في صينية يسبح الليمون في مائها ،
وكانون وزكائب فحم ، ودجاج وديك مزهو فخور ،
مات أبى لا أدري كيف ، ولا أدري ماذا كان يعمل ،
ولكن بوسعى أن أحدثك عن الموت نفسه فانى به خبير ،
انى من صناعه ، حق لى يوما أن أقول اننى واهب
الحياة ، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته كلمات
السماء تفتح أبواب غامضة تتسلل منها الشياطين ،
بل يجيء ابليس نفسه في موكبه النصارى يحف به
القضاة ورجال الشرطة والسجانون ، عند ذاك يغير
جعفر الراوى اسمه ولقبه وجلده ..

قلت برجاء :

— ماذا عن موت أبيك ؟

— سامحك الله ، انك خائق الالهام ، تود أن تعرف
كيف مات أبى كما لو كان أباك أنت ، ماذا أعرف عن
ذلك ؟ ، أستيقظ في الظلام فأنتبه الى أن أمى تحملنى
بين ذراعيها وتغادر بيتنا الى بيت جارتنا ، لا شك أن
النوم غلبنى ، ولما أستيقظ في الصباح أجدنى في مكان
غريب فأبكي ، تجيء الجارة بطعام فأسأل عن أمى .
— أمك في مشوار وستجىء في الحال .. تناول
طعامك .

وأتناول الطعام رغم ضيقى ، وأسمع طوال الوقت
صواتا ، ولكن الصوات والزغاريد أصوات مألوفة
في حارتنا ، وأرجع الى بيتنا في نفس اليوم ليلا أو في
اليوم التالي فألقى جوا غريبا وكثيبا يفشى سرا أليما
لا أعرف كنهه ولكن تصيبني منه وحشة وقلق مبهم ،
ها هي أمى ، ما أشد تغيرها ، جلبابها أسود ، وجهها
مريض شاحب ، نظرتها خابية وذابلة ، فقد البيت
مناخه النقى ومرجه الأصيل .

— ما لك يا أمه ؟

— كل شيء طيب ، لعب . .

— أين أبى ؟

ودارت وجهها عني وهى تقول :

— سافر . . اللعب . . عندك السطح ولا تكثر من

الأسئلة . .

اننى أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة
اكتراث ، أمى تهرب منى ، تهرب بعينيها ان لم تهرب
بجسمها كله ، وهى تبكى من وراء ظهرى ، أبى
لا يعود من السفر ، ثم اننى لست جاهلا كل الجهل ،
بلغتنى أشياء عن الله . . . الشيطان . . . الجن . . .
الجنة والنار . . حتى الموت بلغتنى عنه أشياء منذرة
بغير السرور ، متى يعود أبى من سفره ، ومتى يرجع
وجه أمى الى صفائه المعهود ، وكم دام انتظارى القلق
لأبى ، ومتى أدركنى اليأس منه ، وكيف أنسيته وشغلت
عنه ، وكيف واضلت حياتى بعد ذلك وكأن شيئا لم



يكن ؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل الى تذكره وتسجيله ،
أما يد أمي فلا يمكن أن تنسى ..

— ذكرت مرارا يد أمك ؟

— تمسك بي أو أمسك بها ونسير معا في الحوارى

والأسواق ..

— للتسوق أم للنزهة ؟

كنت بدأت أنس الى روحه المتقدمة وراء الأطلال
والخرائب ، وبدا هو سعيدا ممتنا للعشاء والبورى
وظفره بمستمتع يتابع ما يقول باهتمام ، قال :

— أحيانا أحاول أن أتذكر صورة أمي فلا أعثر على
شيء ذى بال ، ما طولها على سبيل المثال ؟ كنت بطبيعة
الحال أقصر منها جدا ودائما أنظر الى فسوق حين
أحدثها ولكن ذلك لا يدل على شيء ولا يحدد طولها ،
ولا فكرة لى عن وزنها كذلك ، ولا لون عينيها ، ولا لونها
نفسه ، ثم صورة عامة غير محددة الخطوط ،
إشارات ونبرات غير مسموعة ، وعواطف جياشة ،
وابد سامات وضحكات وزجرات ، أشبه بأطياف
الأحلام ، غير أنني أستطيع أن أقرر بأنها كانت جميلة ،
لولا جمالها لما حدثت المأساة ، كما أنني أنكر قول
جارتنا لمناسبة منسية « ولديا جعفر يا ابن الست
الجميلة » ، ولكنها لم تبق في الحياة كثيرا حتى تمكننى
من حفظها في قلبي من الدمار ، يدها فقط التى بقيت
معي ، أحس حتى الساعة مسها وضغطها وشدها
وانسيابها ، وهى تمضى بي من مكان الى مكان ، خلال

طرقات مسقوفة ومكشوفة ، وتيارات من النساء
والرجال والحمير والعربات ، أمام الدكاكين وفي
الأضرحة والتكايا ، وعند مجالس المجازيب وقراء
الغيب ، وباعة الحلوى واللعب ، تقودنى في جلبابى
وعلى رأسى طاقيّة مزركشة تتبدل من مقدمها تعويذة
كالحنّية ، وكانت أحاديثها متنوعة ذات صيغ شعرية
تخاطب بها الكائنات جميعا كلا بلغته الخاصة به ،
فهى تخاطب الله فى سمائه ، وتخاطب الأنبياء والملائكة ،
كما تخاطب الأولياء فى أضرحتهم ، حتى الجن والطيور
والجماد والموتى ، وأخيرا ذلك الحديث المتقطع
بالتنهدات الذى تناجى به الحظ الأسود ، كانت الدنيا
حية وإعية تتلقى الكلام وترده ، وتشارك بارادتها
الخفية فى حياتنا اليومية ، لا فرق فى ذلك بين ملاك ويا ب
ضريح ، بين الهدهد وبوابات القاهرة القديمة ، حتى
الجن كانت تلىن لكلماتها السحرية ، وبفضل ذلك
نجوت من مهالك لا حصر لها ..

ولما وجدته جادا لم أتمالك من الضحك فسألنى
دون أن يخرج من جديته :

— علام تضحك ؟

فقلت بلهجة المعتذر :

— انك تروى حلما ولكنك الآن تعرف تفسيره

وتأويله ..

فقال يكبرياء :

— لا تتخيل أنك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت .

— هكذا ؟

— انى بحر ولا فخر !

— ولكنك لا تفرق بين الحقيقة والخرافة .

— لا توجد خرافات وحقائق ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعية الجهاز الذى ندرکها به ، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ ، ولكل جهازه الروحى ، والىک مثالا حيا ، فقد أخذتسى أمى ذات يوم لزيارة قبر أبى بين قبور الفقراء المكشوفة فى العراء ، ثم راحت تنأجيه قائلة : « زوجتك وابنک يحييانک ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحب الناس وأكرمهم ، انى أشکو اليک وحدتى وهمى فادع لنا ربک يا حبيب » . وسرعان ما ألصقت أذنى بجدار القبر فسمعت تنهدة وكلاما أخبرت به أمى فقالت لى : « مبارك أنت حتى يوم الدين » .

فسأله باشفاق :

— ماذا قال لك أبوک ؟

— أنك غير مؤهل لتصديقى فلن أجيىک !

ساورنى شعور بأنه يغطى ماء الدعاية بسطح من الجدية الخشينة أو أنه يريد احاطة أسطورته بجو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه ، فتمتعت مدعنا :

— فوق كل ذى علم عليم .

— كانت دنيانا دنيا حية ، تنبض بالرغبات

والعواطف والأحلام ، فيها الجد والمزاح ، فيها الفرح
والآسى ، ينتظمهم جميعا - الانس والجن والحيوان
والجماد - لحن التفاهم والتعامل ..
- ولكنك تدرك ذلك كله ؟

- كل الادراك ، بشغف واصرار ..
- ألم يطوقك الخوف ؟

- أحيانا ولكنى سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع
والهجوم وصرت سيد الدنيا ، كنت ذات مساء ألاعب
الليمون فى صينية القلل على حافة النافذة فما أدرى
الا ورأس كائن يتطلع الى من موضع فى مستوى النافذة
من الطزيق ، عيناه تضحيان فى الظلام وقدماه
منغرستان فى الأرض ، فتراجعت مضطربا حتى
استلقيت على ظهرى فوق أرض الحجرة ومزقت
صرختى سكون الليل ، وقد علمت فيما بعد أن لقاء
الانسى بالجنى لا يجوز أن يتم على ذلك النحو ، وقالت
لى أمى انه أن لى أن أحفظ الصمدية ، أما عفاريت
بيتنا - وهم يقيمون فى الكرار - فكانوا يميلون بطبعهم
للدعابة ، ولا يصدر عنهم أذى حقيقى ، يخلطون
المش بالعسل ، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى ،
أو يطفئون المصباح بيد الماشى ليلا ، وأسوأ مزاحهم
تحويل الأحلام الى كوابيس ..

- هل تستطيع أن تعطينى فكرة عن صورة
العفريت ؟

- كلا ، انك غير مؤهل للتصديق ، ثم ان الجن

تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة
وسرعان ما ينساها تماما ، بل انه ينكرها ، رغم أنه
يلقاها كل يوم في صور جديدة من البشر ، وفي الحال
الآخيرة يصدر عنها شر حقيقى وأذى كبير ، ولكنك
تصر على أن الجن خرافة ليس الا ، ومن ناحية أخرى
فقد شاء لى القدر أن أرى النور المبارك في ليلة القدر
وأنا جالس على حجر أمى أتطلع الى السماء ! .. فتحت
نافذة وأطل منها نور باهر طمس أضواء النجوم ..
فقلت ضاخكا :

— يقال انه لا يرى نور ليلة القدر الا من كتبت له
السعادة من البشر ~

فقهقه طويلا ثم قال :

— يبدو أنك غلبتني هذه المرة ، ولكن الى حين فقط ،
حقا انى أبلغ مثال للبؤس ولكن العبرة بالخواتيم ،
والخاتمة ما زالت مجهولة ، وقد أجد الجواب في
الجنة ، ولى مع الجنة تاريخ طويل ، كانت أمى تحدثنى
عنها حديث الخبير ، فأحببتها حبا لا مزيد عليه ،
خلبتنى وسلبت لى ، فصارت حلمى الباهر ، جنة
السحر حيث يرى الله بالعين ويسمع بالآذن ويخاطب
باللسان ، في حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم ،
ولكن لنرجع الى حديث أمى ، كيف كانت تعيش بعد وفاة
أبى ؟ ، خطر لى هذا السؤال فيما بعد ولم يسعفنى
الجواب ، كنا نغادر بيتنا كل يوم ، نزور أضرحة
ودكاكين وتبتاع ما يلزمنا ثم نرجع الى بيتنا لقتنهمك

هى فى الواجبات المنزلية وآوى أنا الى جنتى الأرضية
بين القطط والدجاج ؛ وقد تزورنا جارتنا ، وكان
لا أهل لى ولا أهل لها ، أكانت تملك مالا ؟ .. حتى اليوم
لم أعرف وجه الحقيقة فى ذلك ، وقد ظلت ترتدى السواد
عقب وفاة أبى ، وكانت تبكى أحيانا اذا خلت الى
نفسها وأكثر من مرة ضببطتها وهى تبكى ، وأدركت
سر العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبى ، وسألتها :
— ألسنت تقولين ان أبى يقيم بين يدي الله ؟

فأجابت بالإيجاب فسألتها :

— اذن فلماذا تبكين ؟

فقالت :

— انه لخطأ يا جعفر ولكن الدموع تفيض رغم
أرادة الانسان .

لم يقعدنى ذلك عن مغامراتى اليومية فأمضى فى
البهجة ، أجمع البيض ، أطارد الفئران ، أتصدى
العفاريت ، ولبثت المغامرة السعيدة عاما عقب وفاة
أبى ، وأخذت تجذبنى حكايات الرباب فى المقهى تحت
النافذة ، تابعتها باهتمام على قدر استيعابى لها ،
وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصب لأبطالها ،
ومن نفس النافذة شاهدت معارك الفتوات فى الزفاف ،
فأعجبت بالفتوات كاعجابى بالجن ، وحلمت طويلا
بأن أكون فتوة ان أعجزنى أن أكون عفريتة ..
سألته :

— ألم يتحقق لك حلم من أحلام الطفولة ؟

— لا تسخر منى وانتظر ، أريد أن أحدثك عن الحب
في عهد الأسطورة .

— ولكن عهد الأسطورة ليس بعهد الحب . .
— ولكن الحب بدأ عندي من سن السادسة ، كنت
أحب الغوص وسط البنات في ليالي رمضان ، والعلقة
الوحيدة الجادة التي أصابتني من يد أمي كانت بسبب
الحب ، إذ أغويت بنتا تماثلني في السن فأخذتها إلى
سحارة وأنزلت الغطاء علينا ، ولكن لم يدم لي الحب
طويلا فسرعان ما بوغت برفع الغطاء فرفعت وجهي
فزعا فرأيت وجه أمي يحملق في وظيفرتها تسقط فوق
رأسي ، وعلى فكرة كانت وظيفرتها طويلة جدا وكنت
ألعب بها ما وجدت إلى ذلك سبيلا فأحطها وأعقدها
وأدورها كحبل ، لا شك أن أمي كانت جميلة ، ولولا
جمالها ما نشأت المأساة أصلا .

— أعطني فكرة عن حب الطفولة . .

وهو يضحك :

— انه يبدو عبثا ضائعا ولكني أنكر أنه صخب
بانفعالات حادة قاربت السكر . .
— ذاك شذوذ !

— لست تربويا على أي حال ، وبوسعي أن أؤكد لك
أن الجنس لم يكن عنصرا طاغيا في حياتي ولكنه لعب
دورا حاسما في حينه ، أما في الطفولة فقد أسهم في
نطاقه الضيق في تأليف الأسطورة ، غير أن الأسطورة
تعرضت لضربة قاضية لم تكن في الحسبان ، فقد

استيقظت ذات صباح وحدى دون أن توقظنى أمى
كالعادة . أدركت أننى استيقظت وحدى عندما
وجدتها مستغرقة فى النوم ، راقدة على وجهها ، وسرنى
جدا أن أوقظها ولو مرة فى حياتى الصغيرة ، قربت
فمى من أذنها وناديتها ، مرة ومرة وهى لا تستجيب ،
حركتها بلطف مكررا النداء ، ارتفع صوتى واشتد
تحريكى لها ولا مجيب ، وأصررت على إيقاظها ،
وتماديت فى اصرارى حتى ملأ صوتى الحجرة بلا أدنى
نتيجة ، ويئست تماما فأنزلت من الفراش وغادرت
الحجرة ، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت
الى السطح وأنا أقشرها وأقضم حباتها الكهرمانية ثم
أتفل حثالتها للدجاج ، ورأيت جارتنا فجرتنا الحديث
الى الحال التى تركت عليها أمى ، وجعلت تحقق معى
ثم أمرتنى أن أفتح لها الباب ، وهولت الجارة الى
أمى وانكبت فوقها وأنا واقف عند الباب ، وما لبثت
أن ضربت صدرها بيدها وهتفت « يا خير أسود يا أم
جعفر » ، ثم أقبلت نحوى فرفعتنى الى صدرها ومضت
بى الى مسكنها ، وانقبض قلبى لذلك التصرف ،
وتذكرت به تصرفا مشابها يوم اختفى أبى الى الأبد ،
ومضيت أصرخ « أمى . . أريد أمى . . » ، وقضيت
فى بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة ،
وفى مساء اليوم الثانى طيبت الجارة خاطرى وقالت
لى :

— لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم .

فقلت يائسا :
- أنا فاهم ، أمى ذهبت الى أبى ..
فدمعت عينا المرأة وتمتمت :
- ربنا معك ، هو الأب والأم ، هو كل شيء ..
وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك :
- يجب عمل شيء ، ولو باللجوء للحكومة ..
فقالت المرأة :
- حتى الحجر يلين !
ومضت أيام وأنا أعيش ضائعا ذاهلا حتى أقبلت
على الجارة تقول متهللة :
- يا حبيبى ، أبشر ، أمر ربنا بالرحمة ، ستذهب
الى جدك !
لم أفهم شيئا .
كنت أسمع الكلمة لأول مرة .

سألته بدهشة :

— لأول مرة ؟

— لأول مرة .

— لم يجر له ذكر في حياة أمك ؟

— مطلقا ، علما بأنه كان في نفس الحى يقيم . .

— ولم أخفت أمك عنك أمره ؟

— ربما لحنقها عليه ، على أى حال أفهمتني جارتنا أنه جدى ، أنه أبو أبى ، ولم يكن البيت بعيدا عن مرجوش ، ولا كان غريبا على قطالما سرت تحت سور العالى ونحن — أنا وأمى — فى طريقنا الى الحسين ، وأذكر أننى سألتها مرة عن هوية ذلك السور العالى الذى يقوم أمام قبو بيت القاضى كالجبل فقالت لى بعجلة : « انه السجن حيث يقضى المجرمون أعمارهم فى الظلام » ، ولم يكن معزولا عما حوله ، ففى الأحياء الشعبية تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شئ ولا من حديقته ، فقط سور المظل على بيت المال ، وهو سور حجرى يمتد طولا وارتفاعا كأنه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة أما بابه فيفتح على عطفة جانبية ، ولما اجتزنا بوابته تم أول

لقاء بينى وبين حديقته فلم يكن لى عهد قبل ذلك
بالحدائق ، ولا رأيت من عالم النبات الا شجرة بلخ
بميدان بيت القاضى وشجيرة صبار بالقرافة ، اقتحم
أذننى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان
محملة متواثبة بأفرادها الصغيرة الملونة ، كما رأيت
أسرابا من الحمام تحوم حول برج قائم وراء تكعيبية
العنب ، يطل على جدول ماء يشسق الحديقة بالعرض
يقف فيه بستانى مغروسا حتى تلت ساقه وبيده
مقطف ، أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة
حتى أثملتة ، وقد ذهلت حتى أوشكت أن أصرخ من
الأعماق ، وسرت فى ممشى تتجاذبنى على الصسفين
ألوان الأزهار والورود فى طريقى الى السلامك ، وشد
جارى على يدى وهمس فى أذننى مشجعا :
... هذا هو بيتك الجديد يا جعفر ..

كنت فى حيرة شاملة ، وكان جدى يجلس على أريكة
ذات مسند عال مطعم بالأرابيسك تتوسط السلامك ،
والظاهر أن جارى أنهى حديثا قصيرا مع جدى ثم قبل
يده وذهب ، فوجدت نفسى وحيدا تحت بصره ، لما أنفق
من سحر العصافير والأزهار والجدول ، وفى أعماق
قلبى أسى لم تهن نواجذه ، انه يجلس متربعا فى جلباب
أبيض فضفاض متلفعا بشملة مزركشة مغطى الرأس
بطاقيه بيضاء ، طويل الوجه نحيله ، قمحى اللون
ذو نظرة هادئة مستقرة ، جبهته عالية بصورة بارزة
وأنفه طويل شامخ ، أما لحيته فبيضاء مسدلة على

الرقبة وتلامس أعلى الصدر ، تبادلنا نظرة فلم أقرأ
في عينيه ما يخيف وتبدى لى على قمة 'عمر طويل وآية
في النبل والوقار ومالكا جديرا بالحديقة الفاتنة •
وقفت غير بعيد وغير قريب في جلبابى المقلم
وطاقيتى المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبا
ملونا وأحمل تحت ابطى لفافة تحوى ثيابى القليلة •
أطال الى النظر حتى اجتاحتنى رغبة في الفرار •
وكانما قرأ ما في صدرى فابتسم ، وأشار الى
بالاقتراب •

قلت بحرارة :

— أريد أن أرجع الى أمى •

مد لى يده فاقتربت ماذا يدى ، تصافحنا ، تملكتنى
رعشة بكاء ولكننى تماكنت نفسى فلم أبك ، وسرى الى
جسدى من ملمسه دفاء ، قال برقة :

— أهلا بك •

أجلسنى الى جانبه وقال :

— أنت فى بيتك ، هل أعجبتك الحديقة ؟

فأحنيت رأسى بالايجاب :

— تكلم ، انى أحب الكلمات •

فغمغمت :

— نعم •

— أتعرف من أكون ؟

— جدى •

— ما معنى ذلك ؟

- أبو أبى . .
- تصدق ذلك ؟
- نعم .
- هل تتذكر أباك ؟
- كان يحملنى لأرى الحمل ولكنى أتذكر أمى . .
- وأجهشت فى البكاء فريت على ظهرى ثم سأل :
- ماذا تذكر من أبىك أيضا ؟
- زرت قبره .
- فحنى وجهه عنى قليلا ثم سأل :
- ما اسمك ؟
- جعفر .
- ثم ماذا ؟
- جعفر إبراهيم . . .
- ثم ماذا ؟
- جعفر إبراهيم !
- جعفر إبراهيم سيد الراوى ، أعد . .
- جعفر إبراهيم سيد الراوى .
- من الذى خلقك ؟
- الله .
- ومن نبيك ؟
- سيدنا محمد .
- هل عرفت الصلاة ؟
- كلا .
- ماذا تحفظ من القرآن ؟

- قل هو الله أحد •
- ألم تحفظ الفاتحة ؟
- كلا •
- ولم بدأت بقل هو الله أحد ؟
- لفائدتها في اخضاع الجن •
- هل تتعامل مع الجن ؟
- نعم ، كثيرون منهم يقيمون في كرار بيتنا ، وهم يملئون مزجوش ليلا !
- هل رأيتهم بعينيك ؟
- كثيرا •
- انك تكذب على جدك •
- رأيتهم وتعاملت معهم ••
- أجرى أصابعه على الخطوط المكونة لوجهي برقة وعناية فأنست اليه وتخلي أكثر الارتباك عني • قال :
- لا تكذب يا جعفر فاني لا أحب الكذب •
- ولكني أقول الصدق •
- انظر بعينيك ولا تتخيل ما لا وجود له ••
- وسكت فسألته بدوري :
- يا جدى ••
- فنظر الى مستطلمة فواصلت :
- لم لم تزرنا ؟
- مد بصره الى الحديقة ثم قال :
- جدك متقدم في السن كما ترى •
- لم لم تدعنا الى بيتك ؟



(قلب الليل)

بعد صمت آخر أجاب :

— رفض أبوك ذلك !

فسأله :

— هل سأقيم هنا دائما ؟

— انه بيتك يا جعفر .

— وألعب في الحديقة ؟

— وستلعب في الحديقة ولكن لن تكون حياتك لعبا

خالصا ، انك في السادسة ويجب أن تبدأ الحياة

كذلك . .

وبدأت الحياة الجديدة .

★ ★ ★

وتوقف ملتفتا نحوى وهو يقول بحدة :

— ذلك هو جدى ، الراوى ، صاحب الوقف ، فأى

نظام يحرمنى حقى الثابت ؟

فقلت برجاء :

— لنرجع الى حياتك الجديدة !

— لست تأفها كما تتصور ، انى صاحب حق ، وذو

ثقافة ، بوسعى أن أحدثك عن عيوب الديموقراطية ،

وعيوب الشيوعية

— وستحدثنى عن ذلك فى سياق حكايتك ولكن ارجع

الآن الى حياتك الجديدة .

فرفع منكبيه فى أسف وقال :

— يا للخسارة ، لقد ضعف بصرى ، وانى مهدد

بفقدته نهائيا ذات يوم ، ولم يبق من العمر الا أيام ،

وما زالت البشرية تعنى العذاب والقلق ، ما زلنا
نموت مخلفين وراءنا أملا قد تحقق ونسى ، وسسبع
خييات تؤرقنا حتى الاحتضار ، وأنت تريدنى على أن
أروى قصتى بالطريقة التى تعجبك أنت لا التى أرتاح
إليها أنا . .

فقلت، برجاء :

— النظام هو ما يلزمنا لنلم بقصتك فى الأيام القلائل
الباقية من الحياة . .

— كانت الحياة الجديدة حلما بديعا ، نسيت الماضى
كله ، نسى القلب الخئون أمى الراحلة التى لم أزر لها
قبرا ، حلمت بها ذات ليلة ولما استيقظت شعرت بثقل
قلبى وبكى ، ولكن القلوب الصغيرة تتعزى بسرعة
لا تتأتى إلا لكبار الحكماء ، شغلت تماما بجدول الماء
وأشجار الحناء والنخيل والليمون والأعشاب والصفادع
والعصافير والبلابل والحمام واليمام ، وازين خيالى
بالفراش النحاسى المذهب والسجاجيد الفارسية
والصوان الفخم والمرآة الكبيرة المصقولة والستائر
الملونة والدواوين الوثيرة والشرفة المسقوفة بالبلابل
والحمام الكبير بأرضيته المعصرانى وخزان مياهه
العجيب ، كنت أكتشف فى كل ركن شيئا جديدا وثمينا
وأثرى باسم جديد ومنظر فتان ، على أن ذلك كله بهرنى
دون أن يستحوذ على قلبى حقيقة فلم يراع فى اعداد
القصر مطالب الأطفال ، لذلك لم يؤثر فى شيء مثلما أثر
حمار البستانى ، وجدت فيه الصديق والمهابة وقضيت

على ظهره الوقت الطويل قاطعا المعشى ذهابا وإيابا
وأنا أتفادى من الغصون الدانية ، وأعجبت كثيرا
بالظلمة والبئر والفسقية وتمثال الطاووس الذى
يتوسطها فوق عامود مرمرى ، وتولت أمرى امرأة
كهلة حنون نحاسية اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت
بيننا العواطف الطيبة المتبادلة ، ومن بهجة عرفت
الكثير عن مأساة مولدى فى مناسبات شتى وعلى مدى
غير قصير ، وتبين لى أن جدى كان يعيش فى البيت وحده
محاطا بحاشية من الوصيفات والخدم ، جدتى ماتت
منذ زمن قصير ، كما مات أبى بعيدا عن البيت وكان
الابن الوحيد الذى تبقى له على قيد الحياة حتى بلغ
سن الرجولة عقب سبعة أخوة ماتوا بين الطفولة
والصبى ، فكان الأمل الباقى بعد عذاب وكان حلم
المستقبل الذى تمخض - فى نظر جدى ولا شك - عن
خيبة أمل أنكى من الموت والا ما هان عليه أن يعاقبه
حتى القطيعة المطلقة والغربة العدائية والنبد من البيت
والأسرة والتراث ، وذلك ما يجعل من جدى لغزا فى
نظري ، شخصيته توحى بالسماحة والرحمة والعذوبة
ولكنه ينقلب بالغضب شيطانا أو حجرا صلدا ، عرفته
وهو شبه معتكف فى بيته ولكنه كان فى الأصل أزهرى ،
ورث عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر ، على
ذلك لم يعمل فى وظيفة عامة دينية أو تعليمية ، عمله
كان إدارة أملاكه ، فراغه كان الدراسة والاطلاع على
علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب ،

بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوف والسياسة
والآدب .

★ ★ ★

سألقه :

— ألم يكن له نشاط في الكتابة ؟
— كلا ولكنه كان يدون مذكرات أو يوميات بصفة
مستمرة ولا أدري عنها شيئا . .
— وهل كان كذلك أبوه وجده ؟
— كانوا دائما من هيئة كبار العلماء ، هو وحده
الذي أثر استثمار أملاكه والحياة الحرة . .
— هل لك فكرة عن الرجل العصامي في سلسلة
أجدادك ، أعني الرجل العادي الفقير الذي منه نشأ
الثراء ؟
— انها أسرة عريقة في الثراء والدين ولعلنا أول
صعلوك فيها !

فضحكت وقهقه ثم واصل :

— أنشأ أبي نشأة دينية التزاما بخط الأسرة حتى فاز
بالعالمية ، وأراد أبي أن يسافر الى أوربا للسياحة
والدراسة فتردد جدى مليا ثم وهبه الموافقة فسافر الى
فرنسا ، تعلم الفرنسية ، واستمع الى محاضرات في
الفلسفة واللاهوت في دراسة حرة ثم رجع الى وطنه
دون أن يحصل على شهادة أو يحرر رسالة ، وأعلن عن
رغبته في مساعدة جدى في إدارة الأملاك فسمح له بذلك
وكان يرسل بمقالات الى الصحف بين الحين والحين ،

ثم أحب أمي في الوقت الذي كان جدي يدبر تزويجه من
كريمة شيخ الأزهر ، وتزوج منها دون مبالاة ، ماذا
كان عيبتها ؟ ، الفقر ؟ ، الحق أنني لم أعرف لها أهلا
على الإطلاق ، لا خال ولا خالة ، لا قريب من قريب أو
بعيد ، على أي حال انفجر غضب الراوى ، وهوى
بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه ، وخيل
الى كثيرين أن سلسلة الراوى بمضمونها التاريخي قد
انعدمت وانتهت ، ولا شك أن أبى لم تكن تهمة سلسلة
الراوى في شيء ، كان يريد أن يحقق ذاته بطريقة
أخرى ، ولا أخفى عنك أنني أعجبت به وأسفت لموته
الذى لم أحزن له في حينه لصغر سنى ...

★ ★ ★

سألته :

— أليس لديك فكرة عن المقالات التى كان ينشرها
في الصحف ... ؟

— بحثت عنها في أرشيف بعض الصحف ، وهى
تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية والعلم
والفلسفة من ناحية أخرى ، واعتبرتها دون تحيز
عصرية ومتقدمة ، وبصفة عامة يمكن أن يصنف أبى في
الليبراليين ، وعلمت أن أبى عمل مترجما في صحيفة
الفجر عقب استقلاله عن أبيه ، وأنكر أنني ناقشت
جدي في موقف أبى عندما بلغت سن المناقشة ، سألته
ذات مرة ونحن في جلسة مؤانسة :

— كيف هان عليك يا جدي أن تطرد أبى لزواجه من

امراة من عامة الشعب ؟ .. انك رجل مؤمن صافي
الروح نبيل الخلق فكيف هان ذلك عليك ؟
وكان واضحا أنه لم يرحب بالسؤال ولكنه أجابنى
قائلا :

— انك مخطيء فى تصورك ، انى أرى الانسان
نوعين : انسان الهى وانسان دنيوى ، الانسان الالهى
هو من يعايش الله فى كل حين ولو كان قاطع طريق ،
والدنيوى هو من يعايش الدنيا ولو كان من رجال
الدين ...

— وهل كان أبى سيئا ؟
— كان دنيويا فحسب ..
— كانت أمى طيبة ونبيلة ..
فتمتم :

— فليرحمها الله !
ثم واصل بعد هنيهة :
— لم أخطيء ولم أندم ولكنى حزنت طويلا ..
كنت متأكدا من حزنه ، لولا حزنه الدفين ما لان
قلبه لى ، وقال لى :

— لقد فتحت لك قلبى وبيتى ، سيكون كل شئ لك ،
ولكن عليك أن تكون انسانا الهيا ، انى لا أدعوك
للزهد فان عملى الأول هو ادارة الأملاك ..
ورتب لى منذ أول يوم مدرسا يعلمنى مبادئ الدين
واللغة والحساب . لقنت مبادئ دين جديد غير
الدين الذى تلقيتسه على يد أمى ، دين المغامرة

والأسطورة والمعجزة والحلم والشيخ ، أما هذا قدين
يبدأ بالتعلم والجدية ، حفظ سور وشرحها ، المام
بالقواعد ، ممارسة للصلاة والصيام ، دين نظرى
وعملى ، ومدرس جاد يرفع التقارير لجدى أسبوعا
بعد أسبوع . ولم يخف المدرس رضاه عنى فقال لى :
- أنت ولد مبارك ، وليتم الله نعمته عليك . .

كنت قوى الحافظة ، حسن الفهم ، محبا للعمل ،
ومارست الصلاة بسرور مؤتمسا بجدى كما مارست
الصيام ، ولم ينسنى ذلك دينى الأول ، قتراكم الجديد
فوق القديم ، ولم يسكت صوت أمى المتردد فى أعماقى ،
وقد قال لى المدرس فى أثناء مناقشة :

- الضريح مبنى من المبانى والولى جثمان . .
فقلت بأصرار :

- بل لكل شىء حياة لا تفنى أبدا :
فابتسم الرجل وقال :

- فلنترك خلافتنا للزمن وللمزيد من العلم .
ويبدو أننى أحرزت تقدما يستحق الارتياح ، وكان
جدى يدعونى الى شهود مجالسه العامة بصفوة
رجال الدين والدنيا ، كان يدعونى لشهودها وقتها
قصيرا يناسب استعدادى ، وكثيرا ما سمعت القوم
وهم ينسوهون بأجسادى فى مواقفهم المأثورة حتى
امتلات فخرا بأولئك الرجال الممتازين الذين عرفوا
بالعلم والجود ومكارم الأخلاق ، بقدر ما تنغص
صفوى لغياب ذكر والدى ، والظلام الذى يغشى أصل

أمى ، وكلما تقدم بى العمر عاودت التفكير فى أمى
بمرارة أشد وأعمق ، واقتنعت بأن مأساتها -
ومأساة والدى بالتبعية - حادثة غير معقولة ومناقضة
للدين الذى أتعلمه وأمارسه ، وأن جدى يتصرف
أحيانا تصرف من لا دين له ! ، لقد ذهبت أمى ولكنها
أورثتني دينها ومأساتها ، وسوف يرسلان فى جانب
من نفسى طويلا ، ربما أطول مما تصورت .

وأغدق جدى على حبه وحنانه وهو يتابع نجاحى
وتقدمى ، قال لى :

- يا جعفر ، أراك جديرا بتجديد شباب شجرتنا
المباركة !

وقال لى :

- سر متأبطا ذراع الحكمة وافعل ما تشاء .

وقال لى أيضا :

- مبارك من يتحلى بروحى الله ، وأمام المجتهد وسيلة
ليتبوأ العرش !

وفى نشوة من التفاؤل قال :

- خطواتك فى النجاح مباركة ، وسوف تدخل
الأزهر الشريف عما قريب ، ألا يسرك ذلك ؟

فأجبتة باخلاص :

- يسرنى جدا يا جدى ، وأود بعد ذلك أن أسافر

الى أوربا . .

فتجلى الاهتمام فى عينيه وسألنى :

- ما الذى جعلك تود ذلك ؟



— أسوة بما فعل أبى !
فمسح على لحيته البيضاء وتمتم :
— عليك أن تتحلّى بوحى الله ثم افعل ما تشاء . .
فترددت قليلا ثم سألته :
— أكانت خطيئة أبى الوحيدة أنه تزوج من أمى ؟
فتجهم وجهه وقال بحدة :
— ما مضى قد مضى .
وأغمض عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده ثم
قال :

— لقد شرحت لك ولكنك لا تريد أن تفهم !
قلت لك ان وجهه تجهم ولكن ما رأيته كان أفضح
من ذلك ، لم تكن لحظة عابرة ، ولكنه تصور فى صورة
جديدة ومخيفة ، تحجرت نظرتة وشدت عضلاته وتغير
لونه فخيّل الى أنى أرى شخصا لم أراه من قبل ، عدو
منطلق من بركان حاملا غضب الأرض ، قل انه
الصاعقة أو الموت نفسه ، ولكنها كانت لحظة عابرة
خاطفة ثم عاد جدى الى مجلسه . عدا ذلك لم أجده
قاسيا ولا مخيفا ولا ثقيلا ، كانت الانسانية عييره
والحب اشارته حتى عز على أن أصدق أنه فعل بأبى
ما فعل ، وكثيرا ما قلت لنفسى لعله كان يضممر
الغفران ويتحين الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت
المنية أبى فى عز شبابه ، وحتى بعد لحظة تجهمه المخيفة
حدست فى قوله « ما مضى قد مضى » ألما أثارتة الذكرى
وندما يصر على مطاردته ، ولعل عذابه ناشئ عن

مثاليته المفرطة ، فهو يطالب الانسان بالسمو والتطهر
والكمال ، وباعتناق رؤياه في الوجود ، ويحتقر
الضعف وما يراه انحلالا وتدهورا في التكامل البشرى ،
هكذا اقتنعت بأن الطريق الى حنانه واضح ومستقيم
ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق ، والقوة والتقدم
والسمو ، وهو ما عناه بقوله « الانسان الالهى » .

وفي المواسم كان يجتمع الزوار للاستماع والطرب
فتغرد الحديقة بالأغاني الصوفية ترددها الحناجر
الذهبية الذائعة الصيت ، وكان جدى من عشاق
الطرب ، وله فيه ذوق يستوى في مكانه من نسه الغنية
بشئى الاهتمامات الدينية والدينية ، وكنت أتابع
الأناشيد ساهرا حتى الفجر وأنتظر تلك السهرات
بلهفة المحبين ، وقد ضبطنى مرة وأنا أغنى :

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشا حصيرة تحت شجرة ليمون وأردد
الغناء مقلدا الشيخ فانتبهت الى ظله وهو يغطينى
وأمسكت عن الغناء فى غاية من الارتباك والحياء .
ووقفت أمامه فى أدب ، ابتسم ، تمتم :

— ما هذا ؟ . . صوتك لا بأس به يا جعفر . .

فأحنيت رأسى فى رضى وبركة ، سألتنى :

— ماذا تغنى أيضا فى خلوتك ؟

فأجبت :

— أغنيات من العهد القديم .

— مثل ماذا ؟

فترددت قليلا ثم قلت :

— عصفورى يا أمة عصفورى .

فواصل ابتسامه وقال :

— ها أنت تحفظ هنا أناشيد مباركة .

ومضى يتفقد الحديقة وقد بدا جليلا مضيئا .

وفي أوقات الفراغ كنت أجلس الى بهجة لتحكى لي الحكايات ، أو أغنى ، أو ألعب في الحديقة مع الحمار ، وأحيانا ألعب أبناء البستانى والطاهى وسواق الحنطور ، وطيلة الوقت أتعطش للانطلاق فى الحارة ، وهل يمكن أن أنسى رحلاتى المتواصلة فى حوارى القاهرة تشدنى يد أمى ؟ ، وصارحت جدى برغبتى فى الخروج فقال لى :

— اركب معى الحنطور فى نزهة المساء .

— أريد أن ألعب فى الحارة .

— أليست الحديقة أجمل من الحارة ؟

فقلت بحرارة :

— أريد أن ألعب مع الأولاد فى الحارة .

فهز رأسه مستسلما وقال :

— بشرط ألا تغيب عن عين بهجة وألا يفوتك ميعاد صلاة .

هكذا خرجت الى الطريق الذى منه جئت .

وكانت بهجة تجلس على كرسى أمام الباب لترعانى من بعيد ، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران ، وفى مقدمتهم ابن لسواق سوارس يدعى محمد شكرون ،

كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه ، دعانى
أول يوم الى مسابقة فى الجرى ! ، وجرى بأسلوب
مضحك وبعناد ، وبين أونة وأخرى كان يثب وثبة
شيطانية يقطع بها مسافة خيالية متحديا ضعفه
الطبيعى ، وكان لطيفا وصريحا فبعد أن تقرر له الفوز
قال لى :

— انك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيا مثلك
أن يشتري لنا اللبن الأحمر والسوبيا ..
ولما أكل وشرب انبسط وراح يغنى :
من فوق شواشى الجبل باسمع نغم بالليل
عشق البنسات البكارى هد منى الحيل
من فوق شواشى الجبل

واذا به يملك صوتا عذبا يهز النفس هزا ، وأدركت
لتنوى أننى لا أستطيع منافسته ، ولكننى رغم ذلك
غنيت ما حفظته من غنائه ، فتكرر على مسمعى ما سبق
أن قاله جدى لى ، قال :
— صوتك لا بأس به !
فقلت له :

— صوتك جميل 'حقا يا شكرون ' .
فقال فى مباهاة :

— ستسمعنى يوما مطربا من المطربين .
سرعان ما اتحدت علاقتنا فى صداقة وطيدة ،
تميزت وسط العلاقات السطحية الكثيرة عاطفة
راسخة وعميقة ، وكان الغناء محور اجتماعنا

وبخاصة في ليالى رمضان الساهرة ، ومن ناحيتى دعوته لشهود سهرات الطرب الدينى في بيتنا فسر لذلك سرورا لا مزيد عليه ، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس عن قرب مهاراتهم الغنائية وخواصهم الصوتية وقدراتهم في التطريب والتأثير ، وتجلي ذلك في انفعاله العنيف الذى بلغ حد العشق والوله ، ودفعه ذلك لاقتحام وقار المجلس بجرأة فاقت كل تصور ، فما كاد المنشد يختم وصلة حتى قام محمد شكرون من مجلسه الى جانبى وراح ينشد بصوته الحسن :

أهلا ببدر التم روح الجمال

فجذب الأسماع بحلاوة صوته وحداثة سنه ، وعمت شهرته الحاضرين من منشدين ومدعوين ، حتى جدى لم يخف اعجابه به ، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى طاهر البندقى ، صوفى وملحن وأستاذ فى الموسيقى الشرقية ومن أقرب المقربين الى جدى ، فأعجب بشكرون جدا وجاذبه الحديث طويلا ، حتى عرف أصله وفصله وأماله ، هذا هو سحر الغناء والجن يطربون لنا ونحن نطرب لهم ، وقد زعم بعض أهمل مرجوش أنهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجن قبيل الفجر ..
فقاطعته برجاء :

— دعنا من الجن ، نحن الآن في بيت الراوى ، ثم
اننى مؤمن تماما بأنك لا تصدق شيئا من ذلك ..

— الذكريات تنهمر كالطر •
— هي دائما كالطر ومهمتك أن تصنع جدولا
صافيا ..

فتنهد ثم واصل :

— زار الشيخ طاهر البندقي جدى عقب أسبوع من
مغامرة شكرون وأطلعته على خاطرة خطرت له وهي
أن يعلم محمد شكرون الموسيقى الشرقية ويدربه على
الغناء فوافق جدى على ذلك بسرور ، وتعهد بأداء
نفقات التعليم والتدريب ، وثبت عندى من ذلك حب
جدى العميق للغناء والموسيقى ، وأنها عاطفة مستقلة
بذاتها عنده وليست تابعة لتدينه فحسب ، وقد قلت
له عندما أخبرنى بما قرره بخصوص صديقى :

— انك تحب الغناء يا جدى !

فابتسم متسائلا :

— لم لا ؟ .. انه صديق الروح الحميم ..

— وهل سمعت يا جدى كبار المطربين ؟

— نعم ، فى بيوت الأصدقاء فى المناسبات السعيدة •

ولم يكن انفاقه على شكرون الا مثلا من انفاقه على

المحتاجين من أهل حيننا •

★ ★ ★

فقلت تلقائيا :

— وتوج ذلك بوقف أملاكه كلها للخير !

فصاح جعفر :

— أما ذلك فلا ، لا خير فى خير يقوم على شر !

— اعتذر عن المقاطعة ..

— اعتذر عن رأيك وهو الأهم .

— اعتذر .

نفخ غيظه وواصل حديثه قائلاً :

— أصبح محمد شكرون تلميذاً للشيخ طاهر

البندقي ، وأتاه الحظ عبر صداقتنا الوطيدة ، وكنت

أنا البواب الذي فتح له باب النجاح ، وقد سررت

لذلك سروراً بالغت فيه أمام جدى ، ولكنه نظراً إلى

بارتياب وسألنى :

— هل يمازج سرورك شيء من الغيرة ؟

فنفيت ذلك بشدة ولكنه قال باستياء :

— الغيرة رذيلة لك عليها فى مثل سنك عذراً! الكذب

فلا عذر لك فيه ، لا تكذب يا جعفر ، كن دائماً صادقاً ،

لا تغضب جدك فهو يحب النقاء ، وقد وهبك الله عقلاً

راجحاً كما وهب صديقك صوتاً عذباً فأنعم بما وهبك

ولا تنغص صفوك بما تفتقد ، ولو كنت ذا استعداد

للغناء ما ساءنى أن تصير مطرباً ، فالمطرب أيضاً

يستطيع أن يكون انساناً الهياً ، من رحمة الله أن كل

شخص يسعه أن يكون الهياً حتى الزبال ، أما أنت

فعليك أن تستعد لدخول الأزهر ..

فقلت بصدق :

— أعز أمانى يا جدى أن أوفق فى حياتى الدينية ..

لا أنكر أننى شعرت بشيء من الغيرة ، وأزعجنى

أن يقتحمنى جدى بقدره خارقة على قراءة ما فى

الصدور ، ولكننى على أى حال شعرت بشيء من
الغيرة ، ها هو شكرون يتفوق بموهبة لا حيلة
للاجتهاد فيها ، وما أنا أعانى تناقض العواطف في
رحاب القلب المعذب . على أن أحلامى حامت حول
الدين والحياة الدينية ، وشعرت شعورا مبهما بأن
ثمة رسالة ما تنتظرنى في هذا المجال المقدس فتطلعت
إليها أشواقى من الأعماق ، ولم تغب عن خاطرى
التركة الكبيرة التى سارثها ذات يوم ، عزبة المرج
والعمارات والأموال السائلة ، ولم يكن العمل يهمنى ،
ولكنى حلمت بالرسالة ، والجلوس فوق أريكة جدى
أستقبل الرجال ، رجال الدين والدنيا ، نناقش جميع
الأمور الهامة ، ونطرب مع المطربين في أوقات الفراغ .

★ ★ ★

قلت مقاطعا :

— انى أتذكر المغنى الأعرج كما أتذكرك في الجبة
والقفطان ..

فسألنى مباهيا :

— ألم تر بنفسك أن الله خلقنى في صورة حسنة ؟

— كنت حسن الصورة حقا ..

— كنت حسن الصورة ، حسن السريرة ، شريف

الآمال ، وقد دخلت الأزهر في طور المراهقة مدعما

بقوة انسانية منورة ، كأننى أمير سماوى ، لأجد

نفسى في بيئة شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتقشف

والأسى ، ولا تتيسر لها الانسانية الحقة ، الا في الجد

الصارم والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا
هوادة ، عرفت العديد من الأقران ، وصادقت كثيرين ،
وقد ذكروني بشعبيتهم وخرافاتهم بمرجوش وبيد
أُمى وبأصلي المأساوى الأصيل ، فأحببتهم رغم كل
شئ ، وكنت أدعوهم للعشاء مساء كل جمعة في بيتى ،
وطيلة شهر رمضان كانت نخبة منهم تفرح معى
وتتسحر معى وفيما بين الافطار والسحور كنا نمضى
الوقت فى المذاكرة والمناقشة ، وبذلك اكتسبت مكانة
فريدة لا تتأتى عادة لطالب ، ولاحظ جدى سرورى
بذلك فقال لى :

— اياك والخيلاء ، املا قلبك بحب هؤلاء الفقراء
الأشراف ، واذكر دائما نعمة الله عليك ..

ولكن تفوقى كان يزكىنى دائما عنده ، فشيوخ
التوحيد أثنى على عند جدى ، كذلك أستاذ الفقه
والنحو ، والمنطق ، حتى سر جدى وقال لى :
— ستكون شيخا ممتازا .

ثم مستدركا :

— الأهم من ذلك أنك تمضى فى طريق النقاء بخطى
ثابتة ...

وقلت لجدى :

— أريد أن أهب حياتى للدين ، لا أدرى كيف ،
ولكننى غير متحمس لأى عمل كالوعظ أو التدريس
أو غيرهما ..

— لا أهمية لذلك البتة ، ما يهمنى هو إرادتك

النقية ، هو ايمانك وحبك للدين ، بعد ذلك ستجد أن كل كتاب هو كتاب دين ، وكل مكان معبد سواء في مصر كان أم في أوربا ، وسييسر الله لك سبيل الحكمة لتكون ممن يجودون بالحكمة ، بالكلمة أو بالفعل ، وهذه هي الحياة الالهية . .

استثار ذلك حماسي لأعلى الدرجات ، وكنت أقدم مترع القلب بالايمان والقداسة ، أستضيء بمثل جدى في الحياة ، بحياته الجميلة الغنية التى عاشرتها في قصره ، بأصدقائه ومناقشاته وطربه .

ولكن كانت تمر بى ساعات سوداوية ، تتسلل الى من مكانها فتغير مذاق الحياة ، وتغشاني سحب الذكريات السود ، فأفكر بحياة النفى التى عاناها أبى ، ومأساة أمى ذات التاريخ الغامض المجهول ، وعند ذاك يثور غضبى على جدى ، وأحاسبه فى الخيال حسابا عسيرا ، ويتبدى لى تشيطانا فى ثوب ملاك ، وأقول ما هو الا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب فى الحياة ويزعم أنه قديس الهى . . ولم أجد من أفضى به اليه بهواجسى الا محمد شكرون .

كان بدأ يشق طريقه بصعوبة فى ميدان مزدحم بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات . وكان يحب جدى ويحفظ له جميله ويقول عنه :
— انه النبيل ابن النبلاء ، لا نظير له فى خلق الله .
فأسأله :

— وما رأيك في موقفه من أبوى ؟
فيقول لى :

— علاقة الأب بابنه علاقة غامضة بالرغم من وضوحها السطحى ، أحيانا يتدفق منها الحنان وأحيانا تتجمد بالقسوة ، عرجى هذا الذى تراه ما هو الا عاهة صنعها أبى فى ساعة غضب ، أما أخلاق الرجل الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين .. وطبعاً لم أقنع بتلك النظرية وقلت :

— ان أخلاق الرجل — أى رجل — وحدة لا تتجزأ .
على أن تلك الساعات السوداوية كانت تجيء كأحوال عابرة لا آراء ثابتة ، وسرعان ما يعود الى صفاء النفس والرؤية الواضحة ، أما أزمة تلك الفترة الحقيقية فكانت أزمة جنس ، أزمة المراهق المتشوف الى القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القسوية ، وعاودتنى كثيرا ذكريات السحارة والبنت التى باتت الآن مجهولة تماماً ، وتعجبت كثيراً كيف أن جدى يناقشنى فى كل خاطرة تخطر على أنه يتجاهل المعركة الحقيقية الناشبة فى صدرى ، وكان فى بيتنا ثلاث نساء — بالإضافة الى بهجة العجوز — فى الحلقة الخامسة من أعمارهن ، لسن جميلات ولا مغريات ولكنهن لا يخلين من رفق يزكيهن عند مراهق مكبوت ، وكنت أرى النساء فى الشارع فى ثيابهن المحتشمة غاية فى الاثارة ، وكان النضال بين ضميرى وغريزتى لا يكف ولا يهدأ ، غير أننى تغلبت على الاغراء بقوة تستحق الاعجاب ،

وكان تشوفى لله فاق كل شىء وهزم الشيطان فى معاقله
جميعا .

أجل لاحظت بهجة نظراتى نحو زميلاتى فجزعت
وتوسلت بمنزلة الأمومة التى احتلتها من نفسى
لتصارحنى بمخاوفها :

— لا تعرض نفسك للهوان ، جدك يعتبر جميع ما فى
البيت امتدادا لشخصه ، والمساس بأى منها مساسا
بذاته المصونة ، وقد نعمت حتى الآن برضاه ووجدته
بلا شك نعمة تستحق الحمد عليها ولكن لجدك جانبا
آخر يسكنه الغضب فتجنبه وأنت خير من يفهم ذلك .
فتمتت بذهول :

— أبى !

— أجل ، وأنت مؤمن ، وصلواتك عبادة حقيقية ،
لم لا تفكر فى الزواج وجدك كفيل بتزويجك من فتاة
تحقق أحلامك وزيادة ؟
فقلت بدهشة :

— لم أفكر بذلك وأعتقد أن الوقت المناسب لم يحن
بعد كما أننى أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من
الخطيئة !

— أنا لا أفهم أفكارك ولكن إذا أردت مساعدة فانى
رهن اشارتك .

وقد علم محمد شكرون بذلك الحديث ، وكان على
علم بأزمته ونضالى ، وكان يعجب لها ، وطالما قال لى :

— تعال معى الى بيوت العوالم فثمة فرص غريدة ،
وما عليك الا أن تغير ملابسك الدينية في بيتى . .
ضحكت طويلا ، ورفضت أى فرصة ممنوحة
بكبرياء واعتزاز بالنفس ، وأسعدنى أن أتألم فى ذلك
الطريق وأن أنتصر على ألى ، وكنت أقول لنفسى :
— طوبى لى ، انى أنتصر كل يوم مرة على الأقل على
الشيطان وانى جدير حقا بمستقبلى الطاهر . .
وفكرت بأمور جديدة لأول مرة فسألت بهجة :
— متى ماتت جدتى ؟
فترحمت عليها قائلة :
— منذ حوالى عشرين عاما .
— أكان لمأساة أبى دخل فى ذلك ؟
— الأعمار بيد الله وحده .
— ولم لم يتزوج جدى بعدها ؟
— هذا شأنه .

وتساءلت ترى هل كان لجدى حياته الجنسية
الخاصة ؟ . . وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسى انه
سيقرأ خواطرى فى عينى كالعادة وسرعان ما تقع
مأساة جديدة ، وقلت لنفسى أيضا ان جانبا من نفسى
يتعقب جدى بالانتقام وأن حبى له ليس خالصا تماما ،
واننى لا أريد أن أنسى تماما مأساة والدى ، وآى ذلك
أننى ما زلت ألح على بهجة حتى اعترفت لى بأن ألى
كانت ابنة دلالة تتردد على بيتنا ، وسألتها ان كان

عرف عنها أو عنهما شيء من سوء فأجابت بالنفى
وقالت لى صراحة :

— جـدك لا يعترف بالناس المجهولين !

فقلت بامتعاض واحتجاج :

— ولكن الناس جميعا الا ما ندر مجهولون ..

الا أنه يحلم بعالم من البشر الالهيين على حد
تعبيره ، أقلم يفطن الى قسوة حلمه ؟

وقررت أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كل
عام ، ومضت الحياة فى جد واجتهاد وطهارة ، وكان
جذى يتابعنى باهتمام وارتياح مغمغما :
— ما شاء الله العظيم .. !

كنت أسير بصحبة محمد شكرون في أطراف
الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها
امرأتان . تنحينا جانبا لنوسع للقافلة ، رأيت
المرأتين ، وهما أم وابنة غالبا ، صورة واحدة متكررة ،
ترتدى جلبابا أسود ، متمنقة بزئار ، حافية القدمين ،
متلفعة بشال أسود ، وبرقع فضفاض تطل من فوق
حافته العينان ، وباليه مغزل .

★ ★ ★

وانقطع عن الكلام مليا حتى سألته :
— ماذا حدث يا جعفر ؟
فالتفت نحوي قائلا :
— اني أتساءل أيضا عما حدث ..
— ماذا تعنى ؟

— بكل ايجاز لقد نظرت الى عيني الفتاة فاقتحمتني
الجنون الكامل .. ، ولكن لندع مناقشة ذلك الى
حينه ، سأصف لك الآن ما وقع ، لقد شعرت بأننى مت
وبأن شخصا جديدا يبعث في مكاني ، وسوف تصدق
أنه شخص جديد بكل معنى الكلمة ، لا علاقة له
بالشخص الميت ، شخص جديد مثل ، يفيض قلبه

بالأشواق والقدرة الخارقة على التحدى والالتحام ،
وسمعت محمد شكرون يقول لى :

— متى تواصل السير ؟

وراقبنى بحدة ثم تمتم باسمما :

— انها راعية غنم !

فقلت وأنا ألهم :

— بل انه القدر ..

— فيم تفكر ؟

— لا بد من معرفة مقرها ..

— حسن ولكن لا تنس العمامة فوق رأسك !

قوة أخرى غير ارادتى تسلمت زمامى ، سرنا وراء
القافلة ، اخترقنا النحاسيين فالحسينية ، ثم رأيت
العباسية فالوإيلية ، لم أشعر بتعب ، لم أرحم عرج
صاحبى ، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجرت فى
قلبى يتابع المغامرة بلا حدود ، وتتابع أقوال محمد
شكرون وشكاياته :

— سامحك الله ..

— ماذا حل بك ؟

— البنت منتبهة الى متابعتك لها ..

— انهم غجر وأفطع من الشياطين ..

— قل لى بالله ماذا تريد على وجه الدقة ؟

أخيرا رأينا القافلة وهى تدخل معسكر عيش
الترجمان وشعاع الشمس يتقلص من ساحتها الرهيبة
لينحلى فى شفق المغيب ، مودعا أكوأها المصفحة

وأناسها المتوحشين وطابع البداوة والنفي الذي
يفصل بينها وبين المدينة ، وتوقف محمد شكرون
ممسكا بذراعى وهو يقول :

— لا خطوة بعد ذلك فليس ثمة مكان لغريب ..
وتأوه مستطردا :

— لقد دميت أقدامنا ..

فقلت من عالمى الوجدانى البعيد :

— لقد ودعتنى بنظرة حية قبل اختفائها ..

— مبارك عليك ..

ثم توسل الى قائلا :

— لنستقل سوارس فى عودتنا .

ولم يفارقنى شكرون ليلتها فسهر معى حتى منتصف
الليل فى البيت ، وجعل يتأملنى طويلا وكأنه لا يصدق ،
وسألنى :

— ماذا دهاك ؟

فقلت له بأسى :

— ما تراه بعينيك .

— لا أفهم ..

— ليكن ، انى مجنون بالبيت ..

— أحدث ذلك بهذه السرعة ؟

— لقد حدث .

— ولكنها راعية ومن بيئة شريرة .

— انه القضاء لا مفر

ومضى يفكر قائلا :

— كيف يمكن اغراءها ؟ .. هل لهن استعداد
لذلك ؟ .. كيف نعمل مع تجنب الفضائح ؟ ..
وما العمل اذا تحدانا المستحيل ؟
فقلت باصرار لا نهائى :
— باى حال من الأحوال أريدها ..

وجعلت أمضى الأصيل عند مشارف الدراسة ، مع
صديقى أو مع نفسى ، جالسا على حجر ، من حولي
ترعى الشاة والماعز والجدى ، على حجرى كتاب
المنطق مفتوحا ، وعينائى تسترقان النظر اليها وهى
جالسة لصق أمها وهما تغزلان ، وكان المكان شبه
خال لا يمر به الا المتشردون وهم راجعون الى المقطم ،
وعندما تميل الشمس نحو المغيب تمضى القافلة فى
رحلتها اليومية مخلفة فى قلبى كآبة وفراغا لا يملؤه
شئ فأذهب الى الجامع لأصلى المغرب ثم أحضر درس
المنطق .

وقررت أن أخفى كوبا فى جيب قفطانى .
وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأم وقدمت
الكوب طالبا حليبا فوثبت مروانة — كما سمعت
أمها تناديهـا — الى ماعز وراحت تحلب لى اللبن ثم
ردت الى الكوب مغطى بالحباب فتناولته وأنا أقول
لها :

— عاشت يداك يا مروانة ..
فابتسمت لى عيناها على حين نظرت الأم نحوى
بارتياب وأنا اشرب اللبن ، ثم تمتعت :



— هنيئًا !

فشكرتها فقالت لى بلهجة ذات معنى :

— أنتم يا شيوخ رجال ربنا •

فقلت بامتنان :

— الحمد لله •

سعدت بانشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتني

غبطة سابغة حتى لحظة الفراق •

ومن موقع المراقبة قال لى محمد شكرون :

— لقد تحررت بما فيه الكفاية ، وأقول لك ان أولئك

الناس مع كل شر الا الشر الذى يسيل لعابك عليه • •

فقلت له باستهانة :

— سيخرج من القمقم مارء نى تعرفه مهما ادعيت

بأنك كنت له صديقا •

ولم يقدر ما فى قولى من ثورة ، لم يعسرف أنتى

أصبحت ملك الملوك وأنتى أفعل ما أشاء بغير حساب ،

وأنتى سكران بفورة الجنون الأحمر •

وربط كوب اللبن بيننا برباط حريرى قاتل ، ومن

شدة نشاطها لست أناملها وأنا أتناول الكوب ، وقلت

لها :

— أنت كريمة يا مروانة !

فحبكت الخمار حول رأسها وهى ترمقنى بشيطنة

فقلت وأنا أنوب فى كلامى :

— ما أجمل عينيك !

وقلت أيضا وهى تمضى :

— ما أجىء هنا إلا من أجلك !
وكفت الأم عن الغزل وقامت • تناولت حصاة من
الأرض ورمتها بعيدا صوب الجبل • ورأتني أنظر
إليها متسائلا فقالت :

— وسيلة حكيمة لصيد الزواحف والحشرات •
فقلت بارتياح :

— الله خير حافظا ••

فقالت بحزم :

— ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته ••

★ ★ ★

وضحك وقال لى :

— صدقنى فيما أقول ، كله ، وبلا تردد ، لا تتأثر
بمنظرى الراهن ، ان من يرانى يؤمن بأننى ولدت فى
مزبلة ولم أمارس إلا انفعالات القىء ، ولكن ما فكرتك
عن الحب ؟

فقلت مباغتة بصعوبة السؤال :

— الحب هو الحب ، انى أصدق جميع ما يقال
عنه ••

— وتؤمن بأنه يصنع المعجزات والعجائب ؟

— أجل ، لست غمرا ، ولكن حدثنى عن حبسك
يا جعفر ، عن نوعه ، راعية غنم حافية الأقدام قد
تشعل الدم ••

— كان كذلك ، نداء للدم ، نداء صسارخ دافع

للحركة ، مفر بالجنس والمهالك ، يقتحم الأبواب
والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر ..
فقلت بدهشة :

— ولكنك كنت وليا من أولياء الله الصالحين .
— لكى تعيش تجربتي تصور أنك فقدت الذاكرة
فجأة وأنك أصبحت شخصا جديدا .

— ولكن الفرد يتغير بالتدريج فيما أتصور
— كلا كلا انى أتغير من النقيض الى
النقيض .. فجأة .. !

— لا شك أنه يحدث فى الظلام أمور كثيرة بعيدة عن
وعيك .

— الانسان يخلق المنطق ولكنه يتجاوزه فى حياته ،
والطبيعة يا عزيزى تستعمل الطفرة كما تستعمل
التطور !

— هات ما عندك يا جعفر .
فواصل قائلاً :

— وذات يوم دعانى جدى الى مجلسه ، سمح لى
بالجلوس ثم سألنى :
— كيف حال دراستك ؟

أدركت لتوى أنه دعانى لأمر آخر اذ أن شيوخى
كانوا يبلغونه عن تقدمى الفريد أول فأول ، وعلى ذلك
أجبت بأننى عند حسن ظنه فقال :

— ولكن الطريق طويل وهو مليء بالمتاعب ..
فقلت بحماس ظاهرى فحسب :

- المؤمن لا يخشى الطريق ..
- قول حسن ولكن الفعل الحسن أهم من القول الحسن .
- هذا حق .
- وتريث لحظات ثم قال :
- ثمة أمور تدعو للتأمل ، وقد حلمت حلما ، وعند اليقظة عقدت العزم على شيء ..
- وما الحلم يا جدى ؟
- لا أهمية لذلك ، والأحلام تنسى بسرعة ، ولكنبقى ما عقدت العزم عليه .
- أهو يتعلق بى يا جدى ؟
- أجل ، وسوف يسعدك ..
- حقا ؟!
- قررت أن أزوجه من بنت الحلال .
- ذهلت ، صمت ، قلت لنفسي ان الرجل عالم بكل شيء ، كيف غاب عني أن جولة مسائية غريبة يقوم بها حفيد الراوى لا شك تلفت الأنظار وتثير التأويلات ثم يتطوع بإبلاغها اليه المتطوعون ، انه عالم بكل شيء ويحاول انقاذه ما يمكن انقاذه .
- ماذا بك يا بنى ؟
- لم يخطر لى ذلك ببال .
- فليخطر انى ..
- ولكن ..
- ان الشباب يمضى بلا زواج لأسباب قهرية وقد

حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجل ما يعتبر نصف الدين ؟

— دعنى أفكر فى الموضوع بعض الوقت !
— سأختار لك عروسا فريدة وسأترك الحكم لك !
رجعت الى حجرتى هائجا فلم يغمض لى جفن حتى
ترامى الى أذان الفجر ، شحنت بقوة جبارة وأردت
أن أنهال على الجدران فأدكها دكا ، انطلق المارد
متحديا ، صمم على نيل فتاته ولو على أنقراض الحى
كله لا القصر وحده ؛ وناجيت أبى وأمى طويلا ، وثار
غضبى على جدى بلا حساب ، انه لا يريد أن يكفر عن
جريرته وما زال غرامه عنيفا بالتسلط والقهر ، وفى
حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بينى وبين
جدى ، فى حلم أو فى هذيان الليل أو بين النوم واليقظة
لا أنكر .

— جدى .. انى أرفض .
— ترفض نعمتى ؟
— أرفض القهر .
— ولو كان منى ؟
— ولو كان !
— أنت عاق ، تخون الجمال والنقاء ، فى سبيل
ماذا ؟

— الحرية !
— راعية الغنم .
— الدم والتشرد والهواء النقى .

— انه الجنون الذى يخرج به المسوسون من بيتى العتيق •

— النعيم الحق فى الجنون •

— انك ابن والديك •

— وانى أعتز بذلك الى الأبد •

— نصفك يود الانتقام منى •

— لا أريد أن أفكر مدعنى أفعل •

— والجبة والقفطان ؟

— سأخلعهما من توى •

— اذن كفرت ؟

— لا أريد الدين مهنة •

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— أريد أن أمارس الحب والجنون والقتل !

أعتقد أننى عبرت بهذا الحوار عن الحال التى كنت أعانيها تعبيراً كاملاً ، وعندما أفضيت بأسرارى الى محمد شكرون ذهل تماماً ولم يصدق أذنيه ، ولما وجد منى الجد كل الجد سألنى :

— هل ترفض حقاً ما عرضه جدك عليك من أجل مروانة ؟

فأجبت بالايجاب :

— أتترك البيت من أجل راعية الغنم ؟

— نعم •

— ما معنى ذلك ؟

— اعتبرنى مجنوناً اذا شئت •

- ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذًا ؟
- هذا محتمل .
- لا تستحق امرأة تضحية بهذه الجسامة .
- فهرزت منكبي استهانة فقال :
- أنا لا أفهمك .
- المسألة لا تتعلق بالفهم ، انها واقع .
- وما تفسيره ؟ . . هل ثمة سر ؟
- انه جنون باهر وأنا مسحور به .
- صبرك ، يمكن التوفيق .
- انى أحقق التوفيق .
- يمكن أن تبقى فى رعاية جدك وأن تواصل دراستك
- وأن تمارس حبك الجنونى . .
- كلا . . كلا . . انها أشياء متناقرة جدا ، وقد
- اخترت . .
- اخترت ماذا ؟
- سأنهج البيت والأزهر . .
- لا ضرورة لذلك .
- بل ضرورى جدا ، انها حياة جديدة . . ، والا
- طردت من الاثنين . .
- عين أصابت هذا الشاب !
- لا بقاء فى بيت جدى الا لانسان الهى . . . أما
- الأزهر فاننى ما وددت مهنته قط . . والايمان لا يحتاج
- الى جميع تلك التعقيدات . .
- ليتك كنت تهجر ذلك لشيء أفضل . .

— المغامرة أفضل .. الجنون أفضل ..

فقال باصرار :

— لن أفهمك ما حييت .

فقلت بسخرية :

— رغم حماقاتك يا شكرون فانك لم تعرف الجنون

بعد ..

— أيعنى هذا أنك هجرت ماضيك كله بسبب الحب ؟

— بل اننى بسبب الحب عرفت جنون المغامرة !

سلم محمد شكرون بالأمر الواقع ، شعرت بأنه

يؤمن حقا بأن المأساة لا تخلو من جنون حقيقى ،

واضطر الى أن يعدنى بالمساعدة بجس نبض مروانة

وأمرها باعتبار أن العاشق يحتاج الى سنييد كالمغنى ،

وبخاصة بعد أن أكدت له تحرياته أن مثل مروانة قد

تقتل ولكنها لا ترضى بعلاقة غير شرعية ، ثم قال

بامتعاض :

— وماذا عن مستقبلك ؟ ، فحتى المغامرون الأحرار

مضطرون الى تناول لقمة ؟ ..

وأغرب شيء أننى لم أكن أوليت ذلك ما يستحقه من

تفكير جاد ، وقد خطر لى اللحظة أن أدرس لغة عربية

وديننا فى مدرسة أهلية ولكنى سرعان ما نبذت الفكرة

جانباً لتنافرها مع جو المغامرة المسحور ، وأحلت

فكرة أخرى مكانها فقلت :

— أكون جوقة لانشاد التواشيح النبوية !؟

— سيمر زمن طويل قبل أن تحيى ليلة ثم يظل

نجاحك بعد ذلك موضع شك وعناء ، والطريق الطبيعي أن تبدأ فردا في جوقة وهو ما لا يناسبك بحال ! فتفكرت مليا ثم قلت :

— أفضل أن أعمل في تختك أنت . . .

— تختي ؟

— لم لا ؟ . . . صوتي أجمل من أي سنيد عندك . . .

— انك ولي نعمتي ولكن . . .

— لا لكن من فضلك ، ثم انك تحيي حفلات في الشهر

الواحد لا تقل بحال عن ثلثه ، ونجاحك مطرد . . .

وصمت محمد شكرون فقلت بحماس :

— ولن تفتقر همتي في تكوين الجوقة الدينية الخاصة

في الوقت نفسه .

— هذا ضروري واعتمد على صداقتي لسماسرة

الحفلات الدينية ، لا أصدق ما نتفق عليه فانه يبدو

خيالا ، وما زلت مصرا على انه يمكن معالجة الأمر

بصورة أخرى .

فقلت باصرار :

— لا رجوع الى الوراء ولا خطوة واحدة ، وسيكون

لي رداءان ، البدلة لتختك ، والجنة والققطان للجوقة

النيوية ، اليس ذلك ممتعا ؟ !

ونظر نحوي في سكون الليل وسألني :

— لأي درجة تصدقني ؟

— لي من العمر ما يجعلني أصدق أي شيء .

— أريد درجة من التصديق أشد حرارة ، كثيرون

لم يصصدقوني ، تأملت لذلك وسعدت به ، تأملت لأن
العمل الفذ يحتاج إلى شهود ، وسعدت لأن اقدامي
مما يعز تصديقه ، أريد ومن حقى أن أريد أن يعترف
بى كائنسان غير عادى ، انسان لا يستطيع أى انسان
أن يهجر النعيم الذى كنت فيه بالبساطة التى هجرته
بها . .

— يدافع الحب وحده ؟

— الحب لا يكفى . . !؟ الحب هو الجنون خالقا !

— أكانت مروانة على ذلك القدر من الجمال ؟

— ولكن ما الجمال ؟ . . المسألة نداء يصيب مفتاحا

كهربائيا . .

— ألم ترغب أيضا فى حرمان جدك من وريثه

الوحيد ؟

— مأساة والدى لم تفارقنى ولكن انطلاقتى كانت

ملائكية لا تلوثها رغبة خفية أو ظامرة فى الانتقام .

— ورد فعل للكبت العنيف الذى فرضته على نفسك

بصفتك انسانا الهيا ؟ !

— أرفض هذا التفسير أيضا ، قلت لك انها كانت

انطلاقة ملائكية ، مثل أغنية الفجر ، قدح الحب

الشرارة فكشف ضوءها عن حلم يتجسد ويتوثب

لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحديا الجاه والقيود

للتمرغ فى تراب الأم الخالدة ، كما هجر بوذا قصره

ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس . . ويحدث

ذلك فجأة ، وليس التطور الذى يملأ دماغك الا



الترسيخ العملى للفجاءة المبدعة ، واليك مثالا حيا
حدث هذه اللحظة فجأة ، لقد قررت الآن ألا أكتب
الالتماس ..

— ماذا تعنى ؟

— الالتماس بتقرير اعانة شهرية لى من وقف
جدى !

— أهى عودة للتفكير فى قضية عقيمة ؟

— لا قضية ولا التماس !

— ولكن ..

— ولا لكن !

— فلنؤجل ذلك الى حينه ، واستمر الآن فى حكايتك
من فضلك .

وقهقه كعادته وقال :

— وذات مساء زحف محمد شكرون وهو يعرج —
وأنا أتبعه — نحو العربية العجوز فى مجلسها فنحت
مغزلها وقامت متوجسة فقال لها :

— صاحبى يرغب فى الزواج من كريمتك على سنة
الله ورسوله !

ذهلت المرأة ، هزلت مروانة بعيدا ، وعاد محمد
شكرون يقول :

— ها نحن تحت أمرك .

وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت :

— لنا قوم ترجع اليهم .

وكان لهم قريب من بعيد غير محدد القرابة فكان
علينا أن نقابله .

كان يوما عجيبا .

كنا أول غريبين يشقان سبيلهما في عشش الترجمان
نهارا دون أن يتعرضا للموت . حدثت فينا أعين
شريرة باستطلاع ساخر وتحد ، وتوقفت الحركة
دقيقة ، حركة تدريب القُرود وجز الأغنام ووزن
المخدرات وجلاء الأدوات المسروقة ودق الطبول .

وتجمع حولنا نفر من الغلمان وراحوا يحيون
الشيخ جعفر هاتفين :

شد العمة شد تحت العمة قرد

ومضينا الى العجوز الجالس أمام كوخه وأم مروانة
واقفة بين يديه . .

وتصافحنا وكان طاعنا في السن حتى الموت فقالت
أم مروانة نيابة عنه :

— انه يرحب بكما .

فقال العجوز يخاطبها بعد أن لقمها في ظهرها :

— لأنك أنت توافقين عليك اللعنة . .

فقال محمد شكرون :

— صاحبي من أصل كريم .

فبصق العجوز قائلا :

— طظ !

فقال محمد شكرون محرجا :

— وهو يعمل . .

ولكن العجوز قاطعه :

— لا يهمننا العمل أيضا !

— أخلاقه ...

فقال :

فقاطعه العجوز :

— ولا تهمننا الأخلاق !

فقال شكرون وهو يتحلى بمزيد من الصبر :

— بكل إيجاز نريد كريمتكم على سنة الشورى بسوله .

فضحك العجوز عن قم خال تماما وقال :

— مع ألف سلامة ... تكلم عن المهر ...

— تكلم أنت ، فأنت كبيرنا .

فانتفخ العجوز قائلاً :

— عشرة جنيهاً في يدي هذه .

وبسط يده ، فتحركت أم مروانة حركة غامضة

فقطب العجوز قائلاً :

— لنقرأ الفاتحة ...

وانطلقت من حولنا الزغاريد .

لم يعلق محمد شكرون بكلمة احتراماً لمواطني ،

وقررت من ناحيتي أن أواجه جدي بالحقيقة كما يجدر

بشباب بلغ رشده وأتم مرحلة لا بأس بها من تعلمه

فاتخذت مجلسي على مقربة من أريكته في السلالم وكان

يسبح في همس وقطته الرومية تهر إلى يساره ، واعتقد

أنه نشأ جو من التوقع والتحفز شارك كلانا فيه ، أنا

بما أضمر من نوايا وهو بفراسته التي يقرأ بها ما في

الصدور ، وجاءنى سؤاله المألوف :
— كيف الحال ؟

فأجبت وعقلي شاردا :

— عال والحمد لله •

فقال بهدوء :

— سبتعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء
رمضان !

صممت على تجربة قوتي الجديدة بلا تردد فقلت :

— معذرة يا جدى لقد وقع اختياري على زوجة
أخرى •

فلم يبد عليه أى تأثير وتساءل :
— حقا ؟

— هي إرادة الله على أى حال •

— إذن هو حق ما ترامى الى ؟

فلم أنبس فعاد يتساءل :

— راعية غنم ؟!

فأجبت ببساطة :

— أجل يا جدى •

قال ولعله تنهد :

— انك راشد وأدرى بمصلحة نفسك •

فسألته باهتمام :

— هل أطمع في نيل رضاك ؟

فمضى يسبح في هدوء فسألته :

— هل يعنى ذلك أنه على أن أغادر البيت ؟

فلم يلتفت نحوى : الى الأبد .
قمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت .
وكان وداع بهجة أليماً ودامعاً ، وقد اقترحت أن
تطلب لى نقوداً ولكنى صارحتها بأن لى من المدخرات
ما يجاوز المائة جنيه ، وجعلت تبكى وهى تقول :
— الأحزان تبدأ فى هذا البيت مع الزواج .
وهمست فى أذنى :
— صدقنى . . . جديك تعيس الحظ . . . انه لا ينام من
الليل الا ساعة . . .
فقلت لها صادقاً :
— انى أحبه وأرفضه !
وغادرت البيت الذى عشت فيه أربعة عشر عاماً
طاهرة .

وذهبت مع عروسى الى شقة جديدة بالخرنفش
اكثرها لى محمد شكرون وساعدنى على تجهيزها ،
مكونة من حجرتين وصالة ، وبدت مروانة فى ثوبها
الجديد آية من الجمال والاثارة ، ولعلى كنت أرى لونها
الطبيعى لأول مرة بعد أن خلقها حمام العرس خلقاً
جديداً ، ولا أقول انى سعدت بذلك ، وأعترف بأن
اللون النحاسى الغامق القديم كان أصبح جزءاً لا يتجزأ
من الصورة التى زلزلت أركان حياستى ، على أن
نداءها ظل مستبداً طاغياً وسيطر على سيطرة كاملة
حتى اعتبرت نفسى أسيراً فى يد قوة لا تعرف الرحمة
ولا الهوادة ، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها

كلسان من اللهب ، ومعتزة بنفسها وبقومها تكاد تسبغ قداسة على التراب الذى منه جاءت كوردة برية ، حتى حياءها الأثوى كان غشاء شفافا لا ضعفا متصلا أو رخاوة طبيعية ، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأننى حيال أنثى قوية لا عمر لها تتدفق منها الفتنة والسحر والتحدى ، وأننى أستسلم فى رحابها كاشفا عن ضعفى بقوة وعنف ؟ ، وأننى أجرى كمطارد أو مجنون فاقد الوعي والحذر ، واشتهر أمرى بين صحبى الجدد فأطلقوا على « الرجل السعيد » و « الرجل الضعيف السعيد » وانهالت على التحذيرات والوصفات معا .

ولم ينسنى شهر العسل عملى الجديد فنشطت له بهمة عالية ، ووجدتنى هياجا بعض الشيء وأنا أدرس نفسى فى بيئة جديدة وأناس جدهم فى الحياة لهو ولعب ، وكانوا يستقبلوننى هاتفين :
— أهلا بحفيد الراوى !

وهو نداء له مغزاه ، تبعنى كظلى فى كل مكان أختلف اليه ، تردد فى الخرنفش ، فى تخت محمد شكرون ، فى الجوقة التى تم الاتفاق على أن تعمل معى حين الحاجة ، وأخذت أحفظ وأتدرب بسرعة استعدادا للتخت والجوقة معا ، وفى شهر العسل نفسه اشتركت مع التخت فى احياء حفل زفاف بالدرب الأحمر ، ارتديت البدلة لأول مرة والطربوش حتى صاح محمد شكرون :
— تبارك الخلاق فيما خلق !

وارتبتك وأنا أخوض أمواج المدعوين والمتفرجين
وكنت أحد اثنين في التخت لا يستعملان الا حنجرتهما
ويجلسان خاليى اليد من أى آلة ، وقدم لى محمد
شكرون قدح نبيذ قائلاً :

— انه ضرورى جدا والا انحبس صوتك .

فى أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول ، ورددت
الغناء بقوة وانضباط وكنت الصوت الثانى فى التخت
ولا جدال وقد نفخت فى السنيدة روحا جديدة هزت
التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدم :

يا ما انت واحشنى وروحى فيك

ولقينا استحسنانا كبيرا ، وضمن الاستحسنان
أصابتنى غمزة من «سكران فصاح : « يخلق من ظهر
العالم فاسد » وضع المكان بالضحك حتى مال محمد
شكرون نحوى وهمس :

— اضحك مع الضاحكين .

وقد فكرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلا ، الناس
يتصورون أننى كنت شيئا طيبا ثم فسدت فانقلبت
سنيدا فى تخت أغنى وأتعاطى النبيذ والمنزول . كلا ..
ليس الأمر كذلك ، لقد غيرت مهنتى هذا كل ما هنالك ،
استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هى
الغناء ، أما روحى فقد ارتفعت درجات وقلبى لم يفسد
ولم يتزعزع ايمانى ، وجدى نفسه هو القائل ان الزبال
نفسه يستطيع أن يكون انسانا هيا ، ولعلى كنت
محمولا بتيار عواطفى الصاخب فى ذلك الحين فلم أدرك

أبعد تجربتي كما أدركتها فيما بعد أو كما أدركها
اليوم ولكنني رغم ذلك ثرت على قول السكران واعتدتها
دعابة عريضة وظالمة ، على أي حال بدأت عملي الجديد
بثقة ونجاح ولكن كان علي أن أنتظر وقتا ليس بالقصير
لكي أنشد التواشيح النبوية كصاحب جوقه له وزنه ،
أما سعادتي فقد غطت على النجاح وعلى كل شيء ،
سعادتي الزوجية ، وكنت بها فخورا ، أنهو بأسرارها
في كافة المناسبات ، وبفضائل الحياة الزوجية ومزاياها
الطيبة ، حتى ضرب بي المثل ، وفي غمرة السعادة لم
أنظر الى الحياة في بيتي الصغير بعين ناقدة ولا حتى
محايدة ، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما يشبه
الوجد الديني .

حقا كانت توجد لحظات خائنة حتى في أيام السعادة
الخالصة . . .

ولكن ما هي اللحظات الخائنة ؟
هي اللحظة التي تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف
على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة .
في تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصا قد ضحك
علي ، قد جرعني مقلبا . .

وأسأل نفسي عما حدث .
أو أنظر الى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة
لانتقام منها .

ما معنى ذلك ؟
كانني أمقتها فجأة وبلا مقدمات .

ولكنها لم تكن الا لحظة عابرة ، كتقلص عضلة
طارىء ، ثم يعود التيار الى مجراه السعيد المبلل
بأنفاس العشق المستعر .

وأعجب لطاقتي في معاشرة الفوضى ، فأنا لا أتنمر
على حين مروانة لا تحسن تنظيف الشقة ، ولا طهى
الطعام ، وتمضى حافية نصف عارية منتفشة الشعر ،
تتحدى الخيال وتناقز الهواء ، وتسحبني من يدى
لزياره أمها وقريبها العجوز فى معسكر الشياطين
ليضحك المخرف ويقول لى :

— ألم يكن الأفضل أن تعمل اماما لجامع ؟

أو يبارك بطن زوجته قاتلا للجنين :

— شرفنا وكن قاتلا فقد ضقنا باللصوص والمهربين !

ويسخر من أصلى الكريم قاتلا :

— من جدك الراوى ؟ أنا جدك الحقيقى ، واهبك

هذه المرأة الجميلة التى تمتص قذائف غرائك
الشريرة . .

فأقول له :

— جدى من رجال الله . .

فيقهقه قاتلا :

— نحن رجال الله حقاً ، الله المنتقم الجبار خالق

البحيم والزلازل ، انظر الى هؤلاء (مشيراً الى معسكر

المتشردين) انهم رجال الله ، صورة منه فى جبروته

وانتقامه . .

والنقيت فى تلك الأيام بجارة أمى فى بين السوريين ،

عرفتها ولم تعرفنى ، اعترضت طريقها وقدمت لها
نفسى ، ذهلت ودعت لى طويلا ، وتذكرت أنتى لم أكن
أعرف اسم أمى كما أن بهجة لم تكن تعرفه ، كنت
أناديها « أم » فتجيب حتى أعجزها الموت عن الإجابة ،
وسألت الجارة عن اسمها فقالت :

— ليرجمها الله .. كان اسمها سكيئة !

وشعرت باغراء فى طرح المزيد من الأسئلة عن
أصلها وتاريخها ولكننى أخمدته ، ربما احتراما
للذكرى ، وشددت على يدها ومضيت فى سبيلى ،
هكذا عرفت اسم أمى مصادفة ..

وسوف أتجب من الذكور أربعة ، وسوف تمضى
الحياة بعد انطفاء شعلتها ، وسوف تجيء أيام
الجفاف والجفاء والوحشية ..
طالما سرنى أن يقال هذا الفتى الذى هجر قصر
النعيم ينشد الحب والحرية ..

وطالما استعذبت موقف مروانة المحب من الطقاطيق
التي أحفظها لتخت محمد شكرون بقدر ما رحمت
موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التى أعدها
لجوقتى الخاصة ..

وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبذ
والمنزول وشعرت بأن المعركة تستغرقنى من الفجر
حتى الفجر .

وتأومت قائلا :

— أى عبودية !



وجاءت أيام الجفاف والجفاء والوحشية .
 ها هي مروانة قوية متحدية سليطة اللسان طويلة
 اليد كأنما خلقت لتقاتل .
 وقلت لها مرة :
 - للرجل احترامه .
 فقالت لي :
 - وللمرأة احترامها .
 ثم قالت بوحشية :
 - لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان .
 فقلت محزونا :
 - أهذا جزاء من أعد لك البيت والأثاث ؟
 فصاحت بي :
 - انى أكره رائحة البيوت !
 وأوغننا السير في أيام الجفاف والجفاء والوحشية .
 وتابعنى محمد شكرون بأسى ، وقال :
 - انى أخاف الحب الجنونى وأفضل الاعتدال .
 فقلت بخزن لم يدرك مداه :
 - انى ضحية الشهوة العمياء .
 - الحياة الزوجية تمر بحالات مرضية حتمية
 تحتاج الى حكمة الأطباء .
 فقلت بامتعاض :
 - لقد دخلت منطقة اليأس !
 ذلك أننى وجدت أن الشركة تتحول الى معركة ،
 مضمرة حيناً ومعلنة حيناً ، وأن مروانة اذا تجردت

من رمز الاثارة الجنونية قائما تتمخض عن لا شيء
البيتة ، أو تتمخض عن ذئبة .

وهي اذا غضبت حطمت ما بين يديها ، مزقت
ملابسي ، طوحت بكراسية الأغاني والتواشيح من
النافذة ، التحمت معي في عراك ، وأصيح بها :

— انك أبغض الى من الموت .

فتصيح بي :

— انك أبغض من القيح .

وقد تمتد فترات البغضاء ، وقد تتسلل اليها
الهدنة بفضل الأولاد غالبا ، وعند ذاك قد تشتعل
انفعالات الرغبة من جديد ، اشتعالات خاطفة ، تعيد
ذكرى الأحلام من بعيد ، أجل من بعيد .

★ ★ ★

وسألته باهتمام :

— ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجية ؟

— ألم أوضح ذلك في سياق الحكاية ؟

— كلا فيما أعتقد ، ما زلت في حاجة الى تحديد

أسباب واضحة . .

— أن الذي ربطني بها حال جنونية ، فلما زالت

وجدتني مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبررا لبقائها

معي ، ولا شك أن سلوكي العام تم عن مشاعري

الدقيقة فاثارها من ناحية أخرى .

فقلت :

— تزول حال الجنون ولكن يبقى الأولاد . .

— الأولاد اطلالوا عمر زواجى ولكنهم لم يؤمنوه
ضد الخواء ، مروانة مجرد اثاره ، ليست امرأة ،
لا هى ربة بيت ولا هى أم ولا هى سسيده بالمعنى ،
وصفاتها الجوهريه خليقة بأن تخلق منها رجلا ، بل
قاطع طريق ...

— وهى ألم تحبك ؟

— لا أظن ، ربما فورة جنونية عابرة ، او مغامرة
استطلاعية ، لم أكن أمثل الرجل الذى يمكن أن تحلم
به ، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن
يموت بمجرد أن تتحول المغامرة الى روتين .. ، أظن
الأمر واضحا ؟

— أجل ، شكرا ..

— وكان لى أحلامى الخفية ، كنت أحلم بالهروب
من الواقع ، من البيت ، أحلم بالتوحد فحتى أولادى
كانوا يختلفون من رؤيا الحلم ، ولكن الى أين ؟ ، وكان
عملى لا يترك لى مجالا للنظر الى فوق ، فأوساط
المنشدين لا قمة لهم يتطلعون اليها ، الى ذلك فانه لم
يهبنى القناعة والرضى بالمقسوم .

والأهم من ذلك أننى لم أكن أحلم وحدى ، أجل كانت
مروانة تحلم أيضا ، وتمسكت بالغضب عقب
مشاجرة ، وسدت الأبواب فى وجه الصلح ، وتحدثتى
بنظرة باردة وهى تقول :

— يجب أن نعيد النظر فى حياتنا ..

ولست في نبرتها تصميما حيا فانقبض صدرى
وتمتعت :

— حياتنا ؟

— أقول لك صراحة انه من الظلم أن نكلف هذا
البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك .

فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة باشفاق وقلت :

— كل الأزواج يفعلون ذلك .

فقلت بهدوء مخيف :

— ولكنى أريد أن أذهب ..

فسألتها ببلاهة :

— الى أين ؟

— الى أهلى !

تماسكت رغم حنقى وتساءلت :

— ألا تعجبك الحياة في هذا البيت ؟

فأجابت بقوة :

— كلا ، أنت تتوهم أنك صاحب فضل ، هذا هو

نقصك !

— أظننى ضحييت بالكثير .

— انى أولى الضحايا !

— اسمعى ..

ولكنى أمسكت تجنبيا للشجار فصاحت :

— لقد كرهت هذه الحياة حتى الموت !

فنفخت قائلأ :

— الأولاد .. الأولاد ..

- من حقى أن أخذهم معى .
 - لكى ينشئوا فى عشش الترجمان ؟
 - لكى ينشئوا رجالا !
 - انك لمجنونة !
 - أنت المجنون وأقسم على ذلك ، لا عاقل يعيش من
 حنجرته كالنساء !
 - لا أمل يرجى من مناقشتك .
 - دعنى أذهب .
 - ولكن عليك أن تتركى لى الأولاد .
 - ماذا تفعل بهم ؟ ، انك تستيقظ من نومك قبيل
 العصر ، ولا ترجع الى بيتك الا مع الفجر أو بعده ،
 وعلى حال لا يعلم بها الا الله ، فكيف يعيشون ؟ ، هل
 تعنى حقا ما تقول ؟
 فشعرت بالقهر وقلت :
 - لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم ..
 - انى أرفض ذلك ..
 ولم ينته الحوار بحسم الموضوع .
 فكرت بالأولاد طويلا ، أيقنت أنه لا حياة لهم معى ،
 وأن على أن أتحدى بالصبر من أجلهم مهما كلفنى ذلك ،
 غير أن مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصة
 فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليا لا يتردد فيه
 نفس ، وذهبت من توى الى عشش الترجمان فبلغتها
 مع الصباح الباكر ..
 وجاءتنى أم مروانة بوجه متجهم وقالت لى :

— اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرة !

قلت لها :

— الأولاد .

قالت بازديراء :

— انهم أولادنا !

وجاء العجوز في ثلة من الرجال المفترسين وقال :

— أنت رجل خائب فارجع الى بيتك .

وهمهم الرجال بالفاظ مبهمة فلم يغيب عنى الخطر
المحقق بى ، وعاد العجوز يقول :

— طلق ، أعطها حقها كاملا ، وإذا كان الشرع
يعطيك حقوقا الآن أو مستقبلا فانى أنصحك بأن تنزل
عنها صونا لحياتك ، ارجع قبل أن تطلع الشمس على
وجهك فقد أقدم على شر كبير اذا رأيتك فى ضوء
الشمس . . .

وذهبت من توى لأطلق . .

وأجلت التفكير فى المشكلة لحين بلوغ البكرى السن
التي أستحقه فيها ، تأجيل أو هروب اذا شئت ، كنت
على يقين من أننى لن أطالب بأولادى بجدية حقة ،
معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوما يتخرج فى
معسكرهم عتاة مجرمى القاهرة ، ومعناه من ناحية
أخرى أن أعيدهم الى حياة لا أمل لأى قدر من الرعاية
فيها ، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوى قد كتب عليهم
الضياع حيثما كانوا ، ولن تكتب لهم النجاة الا اذا
كتبت للمجتمع كله وبصورة جاسمة ، هكذا ذهبت

مروانة طاوية معها قصة الحب والجنس والخيبة ،
وقصة الجفاف والبغض ، لم يبق منها الا ذكرى
الشهوة المذهلة ، والقوة المتحدية ، والعجرفة الصلبة ،
وهي مثل العاصفة خفيفة وضارة ومثيرة للاعجاب ،
وبضيا ع الأولاد تسلك الأسى الى أعماق نفسى ليقيم في
خجرة الأحزان ملتجئاً بذكرىات أمى وأبى .
ولم يكن ممكناً أن أوصل الحياة بهوادة كان لم يقع
شئ .

وكان محمد شكرون يتسابعنى بحذر واشفاق ،
فسألنى ذات يوم :
— حتى متى تمضى فى ترديد الأغانى وتعاطى الذبيذ
والمنزول ؟

مع وجود مروانة والأولاد كان ثمة حياة متكاملة
أيا تكن ، أما الآن فالسؤال يبدو معقولا ، وقلت له وأنا
لا أعنى ما أقول :

— حتى الموت ! .

فقال جادا غاية الجد :

— أن لك أن ترجع الى جدك . .

قلت :

— لقد انتهى الشيخ جعفر الراوى . .

— يمكن أن يبدأ من جديد ، علينا أن نحاول .

— انى أرفض المحاولة .

— عن كبرياء ؟

— بل عن تسليم بالواقع الحى .

— أى واقع يا رجل ؟

— انه لا يرضينى ، ولكنى رفضت المهنة الدينية
رفضاً لا رجوع فيه ، الحياة التى رسمها جدى لى
مرفوضة تماماً ، وهو لن يقبلنى — اذا قبلنى — الا
بشرط الرجوع اليها ..

— لعله يمنحك حريتك الشخصية ؟

— كلا ، انك لا تعرفه كما أعرفه ، وانى أرفض أن
أعرض نفسى لتجربة ذليلة .

فقال باخلاص لا يداخلنى فيه شك :

— انك صديق عزيز ومن واجبى أن أصارحك بأنك
تمارس حياة لا تليق بك ، فلا أنت مطرب ولا أنت
ملحن ، ويجب أن تفكر فى مستقبلك بجدية أكثر ..

— هذا ممكن بعيداً عن جدى !

— أراك غير سعيد الآن ..

— ربما ، ولكننى قمت بمغامرة جنونية سأظل
فخوراً بها ما حييت ، وانى فخور أيضاً بأننى أتكيف
مع أى مستوى للحياة دون تدمير أو ضعف ، تجدنى
طافحاً بالبشر والقوة سواء عشت حياة الأعيان أو
حياة الصعاليك ، وما أنا أتمسك بالصعلكة وأرفض
محاولة الرجوع الى حياة القصر ، أرفض أن أكون
شيخاً محترماً وزوجاً نبيلاً وممارساً للطقوس
والتقاليد الرقيقة لا لأننى أختار ذلك بإرادتى الحرة
ولكن احتراماً لرؤيا جدى وطمعاً فى تركته ..

— وماذا عن مستقبلك ؟
— سأفكر جديا في دراسة الموسيقى والتلحين عند
الشيخ طاهر البندقي اذ لا يمكن أن تمضى الحياة
بلا طموح ..
كانت مروانة رمزا للحياة الماضية ، كما كانت
العذر الثابت لتقبل حياة عادية بلا طموح ، فلما ذهبت
وجدت نفسي عاريا .
وكان على أن أعيد النظر في حياتي .
وفي تلك الفترة القلقة من الحياة عرفت همدى
صديق ..

كان محمد شكرون يحيى حفلا في حديقة لبتسون ،
وفي الاستراحة دعى مع أفراد تخته الى مقابلة هدى
هانم صديق في بنوارها ، وكانت تنتظرنا وعلى
شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس
سيدة شديدة السمرة بدا من تأديها أنها وصيفة .

راعنى أول ما راعنى بهاء منظرها ، وأناقتهما
المحتشمة ، واعتزازها بنفسها الذى لا يجاوز حدود
الأدب ، وهالة من الجاذبية الرصينة ، أما جمالها
الأنثوى فيتركز في عينيها السوداوين واستدارة
وجهها ، وكانت على وجه اليقين في الحلقة الرابعة .
ترك منظرها في نفسى أجمل الأثر ، ووقفت بين
الزملاء الكهول مزهوا ببدة جديدة وبصحة وشباب
وقامة فارعة .

دعتنا للجلوس وأمرت لنا بالمرطبات وقالت موجهة
الخطاب لمحمد شكرون :

— صوتك عذب وتختك ممتاز ، انى من أسرة تعشق
الأصوات الجميلة .

فلهج محمد شكرون بالشكر ونوه بذكرى المغفور

له والدها الذى يحتفظ له أهل الفن بأجمل الذكريات
قال :

— طالما سمعت أستاذى الشيخ طاهر البندقى يقول
عن قصره انه كان معقل الموسيقى الشرقية .
فابتسمت الهانم فى رضى ، والتقت عينانا أكثر من
مرة ، فقال محمد شكرون مشيرا الى فى مباهاة :
— زميلى جعفر حفيد سيد الراوى .
فتساءلت باهتمام :

— حقا ؟

— انه يهيم معنا حبا فى الفن . .
— جميل ، ولكن هل يرضى الراوى الكبير عن ذلك ؟
فأجبت :

— ندر أن يرضى جد عن حفيد !
ونظرت السيدة نحو محمد شكرون قائلة :
— سوف نتقابل عما قريب .
انصرفنا سعداء ، وفسر لى محمد شكرون قولها
قائلا :

— هذا يعنى أننا سندعى قريبا لاهياء حفل فى
بيتها . .

وقال لى باهتمام :

— انها من آل صديق ، كريمة الرجل العظيم ، أرملة
واسعة الثراء والثقافة . .
وصمت قليلا ليذن كلامه ثم قال :
— أعتقد أنها مالت اليك . .

انبعث في نفسى طرب وسألته :
— ألك خبرة بتأويل نظرات النساء ؟
— أجل لمحتها أكثر من مرة في أثناء الغناء وهى
تنظر نحوك حتى قبل أن تعرف نسبك ..
— ليصدق حدسك يا صديقى ..
فقال محذرا :
— ولكنها سيدة محترمة .
فقلت، محتجا :
— يا للأسف !
و كرت بها مليا ، انها شىء نفيس بلا شك ، ولا يقلل
من قيمتها أنها تكبرنى على الأقل بعشر سنوات ، بل
زادها ذلك ملاحاة فى نظرسى ، أما الجنون الذى
اجتاحنى ذات يوم فيبدو أنه لا يتكرر .
وقال لى محمد شكرون :
— يا لها من فرصة !
— ماذا تقصد ؟
— امرأة ممتازة كالعشدة .
— هبنى لم أحبها ؟
— أهذا ممكن ؟ .. ألم تشم رائحتها المسكرة ؟
فضحكت عاليا ، وكان محمد شكرون قد أحب
راقصة وتزوج منها ووفق فى حياته الزوجية غاية
التوفيق .

★ ★ ★



ونذهبنا الى بيت آل صديق بالحلمية احتفالا بختان
طفل ، ذكرنى السلامك والحديقة بقصر جدى ولكن
الحديقة كانت أصغر كما أن سور البيت كان قصيرا
لا يحجبه عن العالمين ، وأقيم لنا سرادق مكشوف في
الحديقة التى عبقت بشذا زهر البرتقال مما يدل على
أن الوقت كان ربيعاً .

وغنى محمد شكرون بانبساط حقيقى ورددنا الغناء
بحماس غير عادى ، وارتفع صوتى وأنا أردد :
كان قلبى عليك عليك قلبى

وعقب الوصلة الثانية اندلع النبيذ فى رأسى وتسلطن
المنزول فجلست تحت شجرة برتقال فى اعياء ..
وجاءت هدى هانم صديق تتفقد أحوالنا وتجاملنا
فقمت لها وأنا أكاد أترنح فتمتمت :
... أنت فى حال !

فقلت ممتناً :

— هذا ما يفعله بى السرور .

وأمرت لى بقدح ليمون بالصودا ثم قالت :

— تعجبينى روح المغامرة !

فأدركت أنها تشير الى صعلكتى فى تحت محمد

شكرون فقلت :

— انى أقرر مصيرى بإرادتى الحرة .

فابتسمت قائلة :

— المغامرة الحق فى رأس الانسان !

— ماذا تعنين يا سيدتى ؟

- فتجاهلت السؤال وقالت :
- — ترامت الى أنباء مثيرة عن خلاfk مع جدك .
 - فقلت باستسلام :
 - — ها هي شهرة ضلالي تضيع بين الصفوة .
 - فابتسمت ابتسامة جذابة وذهبت .
 - وشعرت بأن باب حياة جديدة ينفتح لي رويدا .
 - وعقب السهرة مضى بي محمد شكرون الى مقهى
 - باب الخلق ، قال لي بجدية :
 - — علينا أن نتدبر أمرنا .
 - فتساءلت متخابثا :
 - — أى أمر أيها اليلبل ؟
 - — لا تتغاب ، عرفت من وصيقتها أنهم عرفوا عنك
 - كل شيء . . .
 - — كل شيء !
 - — السؤال له مغزاه الكبير .
 - — والجواب له عواقبه الوخيمة !
 - — رغم كل شيء . . .
 - — وحقق في باهتمام ثم واصل :
 - — رغم كل شيء فأنت مدعو الى لقاء في حديقة
 - لبتون ، انى مكلف بابلاغك . . .
 - فذهلت وتمتمت :
 - — هذا يفوق تصوري !
 - — ولكنه الواقع دون زيادة .
 - — أجل .

- علينا أن نتفق على خطة .
- ولكنك لم تسألنى عن عواطفى ؟
- لا أظنها عدائية !
- طبعاً .
- يكفى هذا ، وفى اعتقادى أن الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم .
- لا تبالغ .
- خبرنى ألا يسعدك أن تتزوج منها ؟
- أنت تتخيل أنها تفكر فى الزواج ؟
- انها ترفض العلاقات غير المشروعة . .
- تتزوج من صعلوك ؟!
- انى أعرف قصة أمير هجر قصره ليتزوج من صعلوكة .
- فضحكت فسألنى :
- ماذا عن قلبك ؟
- انى معجب بها ، بشخصيتها وجمالها ، لا شك أن الارتباط بها يسعدنى .
- هذا هو الحب ، أو هو نوع من الحب ، أو هو استعداد طيب للحب .
- ليكن .
- اذا فعليك أن تبدأ احتراماً لكرامتها . .
- مزيداً من الشرح من فضلك .
- لقد بدأت هى خطوات ثابتة ، وما هى تدعوك للقاء ، فهل تذهب لتنتظر كالبنات أن تغاتك هى

بحبها ؟ .. كلا .. يجب أن تكون أنت البادية ،
احتراما لكرامتها كما قلت ..
- ترى ذلك ؟

- المسألة ذوق أولا وأخيرا ، لا تنس النضحيات
المتوقعة من ناحيتها ، حقا انها سيدة نفسها ، وأغنى
الأسرة ، ولكن حتما ستتمزق أواصر قربي وعلاقات
أسرية بسبب الزواج ، لا شك في ذلك .. ، وانها
لشجاعة لأنها ستصمد في وجه ذلك كله ..

- لولا أنني مررت بتجربة مشابهة لما صدقت
الواقع ..

- بلى ، ولكنك مررت بنفس التجربة ، ولا تنس
أنها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوى ، والزوج
السابق لروانة وأبو أربعة أبناء بعشش الترجمان ،
انه المستحيل عندما يصير ممكنا ..

وفكرت في الأمر من شتى جوانبه بعد أن وجدت
من عقلى وقلبى اقتناعا به فقلت :

- اذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسى مضطرا
الى التخلي عن العمل في التخت ؟

- هذا واجب لا شك فيه .

- ولكن كيف أرضى بألا يكون لى عمل الا زوج
الهانم ؟!

فقال بثقة :

- سيكون لك عمل ، لا أدري الآن ماذا يكون ،
ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج الى رأس المال

والمجهود البشرى وأنت تملك هذا المجهود ؟

ثم وكأنه يشجعنى :

— هاك مغامرة جديدة أيها المغامر الأعظم .

فقلت بفتور :

— المغامرة الحققة استجابة لفداء مجنون ، أما هذه

الخطوة فتتحقق فى رحاب الروية وتحسب بالتفكير

والمنطق أنتقل بها من حال الى حال .

— الى حال أفضل !

ليكن ، انى أجرى كالعادة وراء الجديد المثير ،

معى قدرتى العجيبة على التكيف والاستهانة

بالصعاب ، ألسنت أعيش وكأننى نسيت أبنائى الأربعة

رغم أن جرح القلب لا يريد أن يندمل ؟!

وذهبت الى لقاء هدى فى الموعد المضروب بحديقة

لبتون .

أقبلت عليها بشجاعة وثبات وثقة بالنفس فذابت

الفوارق وتم لقاء بين رجل وامرأة .

جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست

« أم حسين » الوصيصة غير قريب ، ورغم عظمتها

الذاتية اعتراها شئ من الارتباك فقالت :

— أرجو ألا أكون أزعجتك بدعوتى ؟

فقلت بثقة :

— كونى على يقين من أنها جاءت محققة لأحلامى .

فتساءلت برقة أنثوية :

— حقا ؟

— كنت أتمناها ولا أدري كيف أحققها .
— حقا ؟ .. ولكن .. ولكن لماذا ؟
— هذا حديث يطول ، ولكن يحسن بى أن أقنع
بالاستماع ..
فقلت بلهفة :

— لا أهمية لذلك ، لماذا كنت تتمناها ؟
فقلت بصوت دافئ :
— كما يجدر برجل أحبك من كل قلبه .
فأسبلت جفنيها موردة الخدين والتفت بالصمت
فى جو من القبول والرضى والسعادة .
— أجل من كل قلبى ..

تذكرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيه ما يستحق
الخشجل ، كان عقلى وقلبى مقتنعين بها ، كنت مرحبا
تماما بالارتباط بها وبلا أدنى طمع فى مالها ، ومن
ناحية أخرى فإن حبها لى — وهو مؤكد — يقتضى ذلك
الاعتراف من ناحيتى تحية لكرامتها ، فضلا عن ذلك
كله فأننى لم أكذب أو لم أكذب بالقدر الذى يجعلنى
كذابا .

وناقشنا مستقبلنا بكل صراحة ، قلت :
— لن يتصل ما انقطع من علاقة مع جدى ..
وقلت أيضا :

— قيد لا يحرمنى ميراثى كله ..
ثم قلت بوضوح :
— سأكون تعيسا لو عشت بلا عمل ..

فقلت بهدوء باسم :

— هذه الهموم لا تخلق عقبة حقيقية في طريق الحب .. ، أما جدك والميراث فلا يهمنى ، وأما العمل فانى أعلم أن الرجل لا يعيش بلا عمل ..
ثم وهى تضحك :

— ولكن هل تعتبر عملك في التخت عملا حقيقيا ؟
— كان حركة في مغامرة أكبر ، هذا كل ما هنالك ..
— أوافك كل الموافقة .

ولقد فكرت في حبنا طويلا .

من ناحيتى صادقت سيدة جميلة ، كريمة الأصل ،
متقفة ، عاقلة رصينة ، وأعدة بمعاشرت سعيدة ،
فملت اليها كما ينبغى لى وأحببت فكرة الارتباط بها .
أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب ؟ ..
انى ضائع ، طريد ، شبه عاطل ، شبه جاهل ،
لا مستقبل لى ، فكيف يمكن تبرير هذا الحب ؟

لكنها كانت هى في الواقع التى تحب حبا حقيقيا ،
حبا بلا مبرر ، فوق التبريرات والأفكار ، ولعل هذا
الحب لا يخلو من رغبة في انتشالي من الضياع واعادة
خلقى من جديد ، فكما توجد في الحب سادية وماسوشية
توجد كذلك أحيانا أمومة ورغبة حميمة في الانقاذ .

هذه أفكار عن الحب الذى ربطنى بهدى فانتهى
بعقد قراننا بعد أن مزق أوامر أسرتها .

لم أكن وقتذاك أفهمه بهذا الوضوح الذى يتبدى
لى به اليوم ، أما في حينه فقد فسرتة التفسير الذى

يرضى شبابى وغرورى ويعوضنى عن الالهانة التى
لحققتنى من جراء هجر مروانة لى .

وودعت محمد شكرون وزملائى من أفراد التخت .
كما ودعت أفراد فرقتى الدينية وكانوا متطوعين
يعملون مع أكثر من منشد ثانوى تبعا لظروف العمل ،
ودعى الجميع الى حفل زفانى الذى أحياه محمد
شكرون ، وانبسطنا غاية الانبساط وكأننا نودع عهد
النزق ونصفيه .

وقلت لمحمد شكرون :

— لن يفرق بيننا شيء .

فاغرورقت عيناه وهو يقول :

— معاذ الله يا أعز الناس . .

وتم الاحتفال فى بيت الحلمية — بيت هدى — فلم
يشهده من أسرتها أحد ، واقتصر على الجارات ، وأمل
محمد شكرون أن يعلن جدى رضاه على نحو ما ،
خطاب أو هدية أو طاقة ورد ، ولكن لم نلق من ناحيته
الا الصمت .

وكان محمد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة
وقال له وهو يقبل يده :

— فرض على أن أنهى الى فضيلتكم أنباء حسنة عن

جعفر .

فتجاهل جدى قوله تماما ، فقال محمد شكرون :

— أنه يبدأ حياة جديدة مع سليله الشرف هدى هانم

صديق .

ولكنه واصل تجاهله وفتح موضوعا جديدا لا صلة له به .

غير أن محمد شكرون قال لي :
- لقد لمست رغم ذلك تأثيره . مثل تقبض يده على المسيحة عندما جاء ذكرك ، وعندما ترزق بمولود فاذهب به اليه ليباركه . .

ولكنني لم أكن أهتم برضى جدى .
ولم أكن أخلو من انفعالات حنق عليه .
استقبلت شهر العسل الثانى فى حياتى ، الايام الهنيئة التى تمضى فى رحاب العاطفة الخالصة والحب المتكامل . ينعم فيها الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن يرجعا الى الحياة ليتغلغلا فى أعماقها أكثر .

وجدتني على رغمي أقارن بين مروانة وهدى .
امرأتان مختلفتان جدا ، مروانة عبقرية فى لعبة الجسد ، ترجع الرجل الى عهد الفطرة ، أما هدى فترجع الجسد الى مستوى القلب ، ورغم أننى لم أحترق الا أننى شعرت بطمأنينة ورسوخ ودوام ، ورغم مشاعري الفياضة وحنانى المتدفق فقد افتقدت جحيم مروانة الأبدى .

وفى توقيت رائع قالت لى هدى :
- أود ألا تبقى يوما أكثر بلا عمل . .
فقبلتها امتنانا فقالت بحذر :
- وحتى ادارة أملاكى لا تعتبر عملا مقنعا ولا هى ترضى طموحى . .

فتساءلت برقة :

— اذن لك طموح ؟

— ألا تحب أن تكمل دراستك الأزهرية ؟

— كلاً .

— لماذا وجهك جدك تلك الوجهة ؟

— انه ذو تفكير خاص وسوف أحدثك يوماً عن رأيه في الانسان الالهى .

— سأصارك بما أفكر فيه ، يجب أن تدرس في بيتك .

— دراسة نظامية ؟

— نعم ، حتى البكالوريا ، ثم تتخصص في دراسة عليا ، مثل الحقوق مثلاً ، وتعمل محامياً ذات يوم !

— يلزمنى عشر سنوات .

— لم لا ؟ .. التعلم في ذاته عمل ، وأنت في الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب الدراسة .

ففرحت بالفكرة وقلت :

— انى أحب التعلم ، ولن يهمنى ما فاتنى من عمر ، ثم اننى أريد عملاً لا وظيفة بالمعنى التقليدى ..

وسرعان ما بدأت بعزم جديد .

خرجت من عصر البطالة المقنعة والبطالة الحقيقية ، وغطى التعلم على احساسى بأننى زوج بلا عمل وبخاصة واننى لم أعترف بإدارة الأملاك كعمل حقيقى فهى لم تكن تعنى أكثر من تحصيل ايجارات والاشراف على اجراء بعض الترميمات والتجديدات

أو توكيل بعض المحامين عند الضرورة .
وحققت تقدما مذهلا واستعنت أحيانا ببعض
المدرسين .

وفي أوقات الراحة كنا - أنا وهدى - نختلف إلى
المسرح أو صالات الطرب فهي مغرمة بذلك كله .
وكننت أشرب رغم تأففها فتقول لي برجاء :
- اشرب ولكن لا تسكر . .

أما المنزل فقد أخذت على عهدا بالأقربه ، وكلما
رأيتني جالسا مع محمد شكرون ذكرتني بالعهد .
ولكنني تبذته بإرادة قوية ، وعبرت الفترة الحرجة
بعزم صادق حتى ضحك محمد شكرون وقال لي :
- انك شيطان في تكييفك مع العريضة ، ملاك في تكييفك
مع الاستقامة . .
فقلت له :

- انى مصمم على أن أكون شيئا .
مارست حياة رائعة ، استعادت من ناحية سعادتي
في أسطورة أمى ، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء
الذى نعمت به في بيت جدى ، ولكن تفشى فيها القلق
المنبعث من رغبة حادة في تحقيق الذات .
أريد أن أكون شيئا ، ولكن ما عسى أن يكون هذا
الشيء ؟ ، القانونى الضليع ؟ ، أم المحامى الناجح ؟
الحق أنى فتننت بمسواد الدراسة المتنوعة ،
واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج ، وانجذبت لها
بأقوى مما انجذبت إلى علوم الدين ، وكننت أحفظ

المقرر وأفيض عنه فيما يهمنى من فروع المعرفة ،
فقرأت كثيرا في التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع ،
ومضيت أمتلىء بحب الحقيقة .

★ ★ ★

وقهقه عاليا ثم قال لى :
— تصور الرحلة من أحلام العفشاريت الى حب
الحقيقة ! .. ما رأيك ؟
فقلت :

— رحلة عظيمة ..

أعجبني بصفة خاصة المنهج العلمى الذى يتحقق
به أكبر قدر من الدقة والموضوعية والنزاهة ، هل
نستطيع أن نفكر بنفس الأسلوب فى سائر شئون
الحياة ؟ ، لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة
بنفس الدقة والنزاهة الموضوعية ؟ ..

وكانت هدى تساعدنى ، فهى مثقفة ، حاصلة على
شهادة مدرسة أجنبية ، درست مبادئ العلوم
والرياضة والآداب واللغات كما درست العربية على
مدرس خصوصى ، وهى غاية فى الذكاء والاستيعاب ،
وقد ساعدتنى أكثر مما ساعدنى أى مدرس خصوصى .
وكانت تقول لى :

— الشهادة لا تهمل فى ذاتها ولكنها الوسيلة الوحيدة
المعترف بها للعمل ، ثم انها تضيف على الدراسة جدية
أكثر ..



ولم تفتر همتها في مساعدتي حتى بعد أن تغير
مزاجها العام بالحمل والوحم .
جمعنا رغم فارق السن والعلم حب يزداد مع
الأيام رسوخا وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل
العنيفة ..

لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات الى حياة زوجية
نقية وتحصيل للمعرفة بلا حدود ، في نظام دقيق
أفقدني الكثير من مظاهر الحرية السطحية ، ولكنه
فتح لي أبواب الحرية المضيئة التي يسمو بها الانسان
على ذاته بالوعي ، الوعي الذي يسعد به الانسان
الحر حتى وان أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية .

★ ★ ★

وهنا قاطعته قائلا :

— حدثني عن تجربتك مع الحقيقة والحرية والمأساة .
فقال ضاحكا :

— الى من توجه كلامك ؟ ، انك في الواقع تخاطب
انسانا لا وجود له ، لم يبق منه الا الخرابه التي
تجالسك الآن في مقهى ودود بالباب الأخضر ، لقد
مات ، لقد دفنت أكثر من شخص عاشوا في جسدي
متتابعين ولم يبق الا هذه الخرابه .

وضحك مرة أخرى ثم واصل :

— ولكنها خرابه غنية بالآثار على أي حال .

وتنحنح ثم قال :

— لقد عشقت العقل وقدرته فأحببت تبعا لذلك

الحقيقة ، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة والتجربة ليصل الى حكم نقى تماما مما يخل بالمنطق والملاحظة والتجربة ، وهو ما أسميته بالحقيقة .
وهذا العقل يعتبر مخلوقا حديثا نسبيا اذا قيس بالغرائز والعواطف ، فالذى يربط الانسان بالحياة غريزة ، والذى يربطه بالبقاء غريزة ، والذى يربطه بالتكاثر غريزة ، ودور العقل فى كل أولئك هو دور الخادم الذكى . .

حسن ، كيف يمكن أن ينقلب الوضع ؟
أى أن يقرر العقل أولا ثم يستغل الغرائز لخدمته .
هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرر قتل نفسه ؟ ،
ان الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم ولكن لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى ،
اذن فقد عشقت العقل وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هدية الهية لنا ، أحلم بألا يكون لنا من محرك الا العقل ، ولا هدف الا العقل ، ولا سلوك الا من وحى العقل ، أحلم بحياة عقلية خالصة يستوى العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية ، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملا مثل « أعرف بقلبي » أو « ألهمتنى عواطفى » أو « التعبير الوجدانى للحياة » ، وصيبت غضبى على حجم الشعور واللاشعور ، وجبل فرويد المطمور تحت الماء الا قمته ، اذ أن المسألة ليست مسألة حجم ولكنها مسألة القيمة أولا وأخيرا ، أردت

لقمة الانسان — عقله — أن يحكم وأن يسيطر ، حتى في
شئون الغذاء والجنس ، والحب نفسه أى قيمة له اذا
لم يقتنع به العقل تماما ؟ ، الحب الأعمى سيظل أعمى
ويتمخض بعد الاشباع عن خواء مكررا مأساتى مع
مروانة ، لذلك أتمنى أن يلعب العقل دوره في حياتنا
الحميمة كما يلعبه في العمل ، وبنفس اليقظة والنزاهة
والموضوعية ، ويجب بالتالى أن تتغير أغانينا
وأشواقنا وأحلامنا .

ولا أزعج أننى استطعت أن أرتفع الى هذا المستوى ،
بل لعل عجزى كان عنصرا هاما في المأساة ، كما أننى
لا أدعو الى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها ولكن
أتشوف الى تجنب آثارها المدمرة على الحقيقة ، تصور
أن نقيم أنفسنا دون خضوع للأناية ، أن نقيم أوطاننا
بلا تأثر بما ندعوه الوطنية ، وبصفة عامة أصبح
الانسان العاقل حلمى كما كان الانسان الالهى من
قبل . .

قلت له :

— هذه الصورة العقلية للعالم صورتها أناس في
كتبهم في صورة مخيفة . .

— أعلم ذلك ، لأنهم عالجوها بقلوب رومانتيكية
مريضة وسخيفة ، ولكنى أومن بأن العقل سيفنى
الانسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعا
مثل الزائدة الدودية .

— ولكن كيف انقلبت هذا الانقلاب الخطير من
النقيض الى النقيض ؟ ..
— كما قلت لك من قبل انى اتحرك فى الحياة
بالطفرة ، لقد اكتشفت عالم العقل فجأة ففتنت به ،
وأيقنت أننى كنت أغامر فى خواء ، وأنى مدعو الآن
حقا للمغامرة فى عالم الفكر ، هذه هى المغامرة
الحقة ..

فسألته باهتمام :

— وماذا عن الحرية ؟

— مثل المغامرة ، تمارسها أحيانا كمتعة للغرائز
كما استمتعت بمروانة والنبىذ والمنزول ، هى عبودية
متنكرة فى لباس حر ، الحرية الحقيقية وعى بالعقل
ورسائلته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرية الارادة
وتنظيمها التنظيم الدقيق الذى يجريها مجرى القيود ،
فهى حرية فى لباس عبودية ، وجرت حياتى على هذا
النحو فى رحاب بيت المنيل ، فثمة ساعات للمذاكرة ،
وساعات للقراءة الحرة ، وساعات للمناقشة والنزعة
والحب ، على طريق طويل رفعت على ساريتة راية
العقل ..

وهنا قلت له :

— هلا حدثتنى الآن عن المأساة ؟

فننقح وهو يقول :

— انتظر قليلا ، فثمة مأساة خاصة ، ولكنى أود أن
أعرض عليك رؤياى عن مأساة عامة أولا ، هى مأساة

الانسان العاقل ، فقييل خلق العقل كان الانسان
منسجما مع ذاته وحياته ، حياة صراع قاسية ولكن
يبدو ألا حيلة له فيها ، مثله مثل أى حيوان آخر ، فلما
أن وهب العقل ، وشرع يخلق الحضارة ، حمل أمانة
جديدة ، مسئولية لا مفر منها ، وفي الوقت نفسه هو
غير أهل لتحملها ، بدأ يدرك النظرة الشاملة ، وأن
حياته على الأرض هي حياة رجل واحد رغم التناقض
الظاهرى ، ولكنه كان وما زال يمر بفترة انتقال
تتواجد فيها الغرائز والعقل معا ، فما يقول به العقل
تعارضه الغرائز ، وما يزال النصر مقررا حتى اليوم
للغرائز ، على الأقل في الحياة العامة ، لم يظفر العقل
بالسيادة المطلقة الا في العلم ، فيما عدا ذلك فهو
يخضع للغرائز ، حتى ثمار العلم نفسه تلتهمها
الغرائز ، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصة في
مجال البحث فاللغة التى تستجيب لها الملايين ما تزال
هي لغة العواطف والغرائز ، أغاني الجنس والوطن
والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل ، هذه هي
المأساة العامة ، ولن تنقشع سحبها الحمراء الا حين
يعلو صوت العقل وتراجع الغرائز نحو الذبول
والفناء ..

أما مأساتي الخاصة فنشأت من الصراع بين عقلى
وبين ايمانى الراسخ بالله •
واعترضنى السؤال ، كيف تصون ايمانك اذا
أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك ؟!

تزعزعت ثقتي في الايمان الخالص كما تزعزعت
في لغة القلب .

وعلى العقل أن يحل بقوته هذه المشكلة .
والقول بأنه لم يخلق لذلك اعتراف بالعجز ليس
الا ، واقتراح بديل له نسميه القلب أو البداهة اعتراف
آخر بالافلاس .

★ ★ ★

— وماذا قال لك عقلك ؟ .

— عجز تماما عن ادراكه أو تصويره ولكنه لم يجد
مفرا من افتراض وجوده ، وهذه هي المأساة ، وأذا
قرر أناس أن المشكلة مفتعلة ، وأنه يمكن أن نعيش
دون التفكير فيها ، فقد كل شيء معناه مهما خلقنا له
من معنى بقوة الخيال والارادة والشجاعة ، واني
لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين
بلا اله . .

وكاشفت هدى بهمومي ، وهي مؤمنة ايماننا بلغ
من قوته أنها لم تبال يوما بالصلاة أي الصوم ،
فقلت لي :

— لا يمكن تقبل الكون بغيره ، ألا ترى الى عمليات
الخلق المتواصلة تحت أعيننا في عوالم النباتات
والحيوان والانسان ؟ . . فلا يمكن الشك في قوة
الخلق . .

قلت لها :

— أريد علاقة حميمة واقتناعا لا مفر منه مثل
 $2 = 1 + 1$

فقلت هدى :

— نحن نتكلم عن القلب كنبع للإيمان ولكن تذكر أن
الله لم يعبدده إلا الانسان العاقل ، فالعقل في الواقع
هو أساس الإيمان ولكن عجزه النسبي عن ادراكه —
مع حرصه عليه — جعله يرجع الإيمان به الى عضو
آخر هروبا من التناقض .

فقلت لها :

— لقد أدرك الانسان الحياة والموت والخوف
فافترض عقله فرضا لينقذ الأمل ، وحتى موسى نفسه
أراد أن يرى الله !

★ ★ ★

عند ذاك سألته :

— ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر ؟
قطوح برأسه الى الورااء مرسلا بصره الضعيف
نحو جدول النجوم الجارى بين منئذنة الحسين من جهة
وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى وتمتم :
— انى عاجز عن الكفر بالله !

★ ★ ★

ثم واصل حديثه قائلا :

— تقدمت في الدراسة ، أحرزت النجاح بعد
النجاح ، اتسعت مداركى ، تنوعت ثقافتى ، أنجبت

أربعة ذكور ، عشت فترة تعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتي .

وكان محمد شكرون هو الذى يوصل النفقة الشرعية الى أم مروانة ، وعندما بلغ ابنى الأكبر السن التى أستحقه فيها قررت أن أسترده ، وخاطبت فى ذلك هدى فلم تمنع والحق يقال ، ولكن تبين لى أن مروانة تزوجت وأنها رحلت هى والأولاد الى احدى الواحات ، بل قيل انها رحلت الى ليبيا ، واشتد حزنى طويلا . .

ولم تهن صداقتى بمحمد شكرون ، كنا نصلى الجمعة معا فى جامع الحسين ثم نتناول الغداء فى الحلمية ، وقد اقتصر اسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع عن الخمر فى رمضان ، وكان يؤكد لى أن الفنانين أمثاله سيحاسبون حسابا ملطفا تراعى فيه ظروف حياتهم ومتطلبات مهنتهم ، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة الثانية قد تأكد ، كما أن ألحانه الشعبية ذاعت وطبعت فى أسطوانات ناجحة ، وقد انتقل هو وأسرته الى روض الفرج ولكنه لم ينجب ذرية .

وقد ظل صديقى الوحيد حتى تعرفت على زملاء من خان جعفر ممن سبقونى فى التعليم وعملوا محامين ومدرسين ، وقد أفدت منهم فى دراستى ، ولم يقف أثرهم عند هذا الحد كما سوف ترى . . .

وسعدت بالأبناء أكثر من أى شىء آخر ، كانوا

آيات فى الجمال والصحة والنضارة ، وكان البكرى
 صورة طبق الأصل من جده الراوى .
 أما جدى نفسه فما عرفت عنه الا اليسير مما كان
 يبلغنى عن طريق محمد شكرون .
 طعن الشيخ فى السن ، اعتكف فى بيته بصفة شبه
 دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة ، وخصص ليلة
 واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين ، وأحيانا
 تستغرقه الشيخوخة فيخيل الى من يعاشره أنه نسي
 همومه الماضية والراهنة ، فبت أشك فى أن أبقى مجرد
 ذكرى فى روحه .
 وتتابع النجاح والتفوق والسنون حتى نلت درجة
 الليسانس فى الحقوق .
 وأتمت هدى نعمتها على ففتحت لى مكتبا للمحاماة
 فى ميدان باب الخلق ، وأثنته بمكتبة غنية وحجرة
 استقبال فاخرة لا يوجدان عادة الا فى مكاتب كبار
 المحامين !
 هكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة .

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه ، فهو
 سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدئ ، وأنا
 أعمل في الواقع كتابع له وفي نطاق نشاطه .
 ولكن مكتبي صار ملتقى للأصدقاء الذين اتخذت
 منهم مرشدين في دراستي القانونية ، وكانوا في
 الأصل أقران طريق من بعيد ، وفي ذلك الملتقى الدائم
 تم الغزو السياسي لروحي
 أود أن أقول لك أنني لم أكن مقطوع الصلة
 بالسياسة كما قد تظن ، ففي بيت جدي كان يزوره
 فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة ، وكانوا جميعا
 نوى طابع واحد ، فهم يمجدون الصفوة التي يجب
 أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن .
 وكان الحديث يدور كثيرا حول الدستور ، لا
 باعتباره أساس الحكم للشعب ، ولكن باعتباره وثيقة
 تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم في مواجهة الحاكم ،
 وكان الميدان لا يشغله إلا الحاكم والصفوة .
 وكانوا يستحوذون على إعجابي بفخامة منظرهم
 وشواربهم الكثة ولحاهم المهدبة ، وكانوا يتحاورون
 يهدوء وتؤدة ، ويتكلمون كثيرا عن العلم والتعليم

والبعثات وتجديد الفكر الدينى ، ولم يخفوا احتقارهم
للفوغاء وحكم الغوغاء ، وأكدوا على حاجة الشعب
الى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتى يحق له
قدر من المشاركة المتواضعة فى الحياة السياسية .

وسمعت جدى يتساءل مرة :

... انن فالسياسة فى نظركم مثل التصوف مضمون
بها على غير أهلها ؟

وجاء الجواب بالايجاب فتساءل جدى :

... ومن يرعى مصالح الغوغاء ؟

وكان الجواب :

... نحن أصحاب المصالح الحقيقية ، فنحن أهل
الزراعة والتجارة والصناعة ، أما الغوغاء فحاجتها
لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات ..

وملت فى ذلك الوقت الى الاقتناع بتلك النظرية ،
والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور ، وحمدت
الله على انتمائى فى النهاية الى الصفوة لا الغوغاء .
وقد مرت بنا أيام مثيرة ، تعالى فيها اسم الشعب
حتى ملأ الفضاء ، وتدفقت أمواج المظاهرات من
الغوغاء كالطوفان ، فراقبتها من فوق السطح بذهول
وسرور .

بيد أننى لم أنفعل بالسياسة بقوة ملحوظة أبدا ،
وآمنت بأنه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرها من
غير أن أطرق للسياسة بابا .

في مكتبي بميدان باب الخلق غزنتى السياسة بعنف
لأول مرة ، وعلى غير توقع .
اصطرعت في حجرة مكتبي أفكار الليبرالية
والاشتراكية والشيوعية والفوضوية والسلفية
الدينية والفاشستية . وجدتني في دوامة صاخبة دار
بها رأسى ، وعملا بمبدئي في تقديس العقل نزعت اليه
أسأله الرشيد وسط ذلك الطوفان .

و ذات يوم سألتني الأستاذ « سعد كبير » ونحن
بصدد استعراض المذاهب ، وسوف أقتصر على ذكر
اسمه لخطورة الدور الذي لعبه في حياتي ولتفاهة أثر
الآخرين ، سألتني :

— ما أنت ؟

فقلت بعد تردد :

— لا شيء .

فقال بحنق وكان شديد الحساسية والعصبية رغم
ذكائه وشمول ثقافته :

— انه الموت . .

— ولكنى دارس مجتهد ممن يقدرسون العقل .

— وهل يتم للعقل مضمونه دون أن يبدى رأيه في
نظام الحكم البشرى ؟

— ولكن . . ولكن السياسة مصالح .

— المصالح تهدى الرجل العادى الى حزبه ولكن
العقل يستطيع بنوزه أن يميز بين الحق والباطل . .
فتساءلت مبتسما :

— أين توجهنى مصالحى فيما تظن ؟
 — ولكنك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك ...
 — على أى حال يجب أن أعطى مهلة أطول للتفكير .
 وأفضيت بهمومى الى هدى باعتبارها الصديق
 الأول الذى لا أخفى عنه شيئاً ، فقالت بلا تردد :
 — ألاحظ أن السياسة مفسدة للعقل .
 فقلت لها وكأنما أعلن عما يضطرم فى أعماقى :
 — ذلك يتوقف على العقل نفسه ...
 فقلت لى بايمان :
 — فى السياسة يجد العقل نفسه فى محنة ...
 — ربما ، ولكن لن يكون الحل فى الهرب .
 الحق أن التفكير أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتى ،
 وما سمعته فى مكتبى قد تحدانى بعنف ، فرحت أتساءل
 عن معنى ذلك كله ، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة
 فاننى لم أشك فى أن بعضهم ينظر الى «وضعى الطبقي»
 نظرة عداوية أصيلة ، وبالتبعية جعلت — لأول مرة —
 أنظر الى هذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسى
 اجتماعى ، كأنما استيقظت فجأة لأجد نفسى مستلقياً
 فوق فوهة بركان .
 أجل فاننى بصفتى حفيد الراوى أنتمى الى الطبقة
 الاقطاعية ، وعليه فمصلحتى تتفق مع حكم الصفوة ،
 ولعلها لا تتناقض بحدّة مع السلفية الدينية ، ولكنى
 لا أتفق مع الليبرالية الشعبوية ، وأما الشيوخيون
 والاشتراكيون فهم أعدائى الطبيعيون ، مثل عداوة

القط والفار ، هكذا فكرت ، ثم تساءلت هل يتيسر لي رغم ذلك أن أحكم العقل بنزاهة بين هذه المذاهب ؟ ، أو تخونني العواطف فأستخدمه كعبد ذكي ؟
بوسعى أن أوثر السلامة بتجنب السياسة ولكنني أمنت بأن ذلك لا يتفق بحال مع احترام العقل وتقديسه .
السياسة هي الحياة .

ولم ينقطع الحوار بيني وبين « سعد كبير » فقد وجدت في موقفه التحدي الحقيقي الذي يواجهني بكل صلابه .

قلت له مرة :

— السياسة عالم رحيب ، مفاتنه موزعة على جميع المذاهب !

فتقلص وجهه الأسمر ، دقيق القسمات ، وقال :
— مغفور لك ترددك فلا بد للفكرة من مهلة حضانة .

— صبرك ، اني أجد في الصفوة نبلا وثقافة وعراقة تاريخية ؟

— ممكن في نظام اجتماعي عادل أن يرتفع كافة الأفراد الى مرتبة الصفوة . . .
فتفكرت مليا ثم قلت :

— وفي الليبرالية حرية وقيم وحقوق للانسان آية في الجمال ؟

— استغل ذلك كله لخدمة طبقة معينة .
فقلت بالاخلاص نفسه :

- وفي الشيوعية عدالة كاملة تجد المذاهب البشرية
 في مناخها تفتحها وازدهارها ..
 - لعل هذا أقل ما يقال فيها !
 - وفي الدين مزايا متوازنة لا تعد ولا تحصى .
 ففقد أعصابه هاتفا :
 - اللعنة !
 فقلت دون مبالاة بعصبيته :
 - لا بد من الحقيقة ولو طال التخييط ..
 وكانت هدى في الحقيقة ليبرالية أصيلة ترى في
 النظام الانجليزى مثلها الأعلى ، وكانت تتابع تأملاتي
 باهتمام مشوب بالقلق حتى سألتها :
 - لم تقلقين يا هدى ؟
 فقالت لي بصراحة :
 - التفكير في السياسة قد يتبع بنشاط سياسي وهو
 أمر لا يخلو من خطورة .
 فقلت لها متنهدا :
 - الأمان جميل ولكن في الحياة أشياء أهم من
 الأمان ..
 - لذلك أشعر أحيانا بأن بيتي السعيد أصبح
 مهددا ..
 فقبلتها وأنا أقول :
 - كوني شجاعة كهدي بك دائما ..
 - أصبحت الموضة هذه الأيام أن يؤمن الشباب
 بالشيوعية ..

— ولكنى أفكر يا عزيزتى فلا تهمنى الموضة بحال
من الأحوال .
وواليت الدراسة والتفكير .

★ ★ ★

وهنا قهقهه عالية بصوت أزعج النائمين والهائمين
في الحازة التاريخية فسألته :
— ماذا يضحكك ؟

— سأعترف لك بسر لم أبح به لأنسان ، ولا لزوجتى
الصديقة .
— حقا ؟ !

— خطر لى ذات مرة أنه توجد أوجه شبه بين حياة
النبي وحياتى !

وتريث قليلا ولكنى لم أعلق فواصل حديثه :
— فقد توفى والدى وأنا دون الوعي وتوفيت أمى
وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمرى فتكفلنى جدى ،
ثم تصورت خروجى من قصر جدى نوعا من الهجرة .
— ولكن النبى لم يهاجر من أجل المغامرة .

— كلا . . كلا . . انه تشابه وليس تطابقا . . ثم
جاء زواجى من سيدة ذات حسب ونسب تكبرنى فى
العمر ، وكيف وجدت فى المناخ الذى هياته لى فرصة
طيبة للدراسة والتفكير ، تأملت ذلك فخطر لى أننى
سأكون صاحب رسالة أيضا . .

فتساءلت ضاحكا :

— رسالة دينية ؟



— لتكن رسالة من نوع جديد ، ولكن سرعان ما
فتنتنى الفكرة فبت أسيرا لها ٠٠ وواليت الدراسة
والتفكير ٠

وكنت أحذر نفسى دائما من خدع الغرائز والعواطف
لأنقى تفكيرى من كل شائبة ٠

ووصلت الى أولى النتائج ، وهى أن نظامنا
الاجتماعى غير معقول ، ظالم ، وأنه مسئول عن
أدوائنا من الفقر والجهل والمرض ، واننى لست من
الصفوة كما توهمت كثيرا ولكنى فرد من عصابة ،
واحتجت هدى على هذا الوصف ونوهت بشرف
أجدادها ، ولكنى أخذت فى تحليل أسباب الثراء من
الهبات والانتهازية والاستغلال والعسف والقوة حتى
اقتنعت بأنه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه
الكلمة ٠٠

وشجعنى سعد كبير قائلا :

— هذا اتجاه طيب يعد بخاتمة طيبة ، ولكن عليك
أن تبدأ بالمادية الجدلية والمادية التاريخية ٠٠
فقلت بثقة :

— انى أقف موقفا واحدا من جميع الفلسفات ،
والفلسفة الماركسية ليست الا فلسفة من الفلسفات
فلماذا تتحول الى عقيدة ، ولماذا تفرض نفسها بالقوة
والدكتاتورية ؟

— ليست فلسفة من الفلسفات ، ولكنها أنزلت من
سماء التأمل النظرى لتطبق على حياة الناس ،

ولنعطى للبشرية أملا جديدا ، فهي تستحق أن تكون
عقيدة . .

فقلت متمللا :

— الجزم بالمادية ليس أقوى في شرعة العقل من
الجزم بالله . .

فقال بازدياء :

— ما زلت مثاليا !

فهتفت بغضب :

— لا ترم بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة
الموضوعية .

فرجع الى الهدوء وقال :

— ادرس ، يلزمك مزيد من الدراسة .

فقلت :

— ولكننى غير مقتنع بالنظرية على حين أننى أرى
العدالة الاجتماعية بديهية لا تحتاج الى نظرية .

وانقطعت زمنا للدراسة والتفكير .

وصار صدرى معتركا لصراع كالجحيم .

فى ذلك الوقت لم أستمع بصداقة زوجتى الا قليلا ،
ولم أهنأ بملاعبة أبنائى الا خطفا ، ولاحت لعينى فكرة
الرسالة كقوة واعدة ومسيطرة ، ومتواضعة فى الوقت
نفسه لأننى نذرت نفسى لانقاذ البشرية فى مصر فحسب !
وكننت أفكر وأعساود التفكير ، وأوجه الى نفسى
التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيرى فى مزالق
العاطفة أو العقائد الموروثة .

ولكى تتضح لى الأمور قررت أن أسجل أفكارى
على الورق .

فسألتَه باهتمام :

— وفعلت ؟

— نعم .

— هل طبعتها فى كتاب ؟

— كلا ، سبقتنى الأحداث .

— أتذكر خلاصتها ؟

قال وهو يضحك :

— عرضت تاريخا موجزا للمذاهب السياسية
والاجتماعية ، من الاقطاع حتى الشيوعية ، ثم
عرضت مشروعى الذى يقوم على أسس ثلاثة ، أساس
فلسفى ، مذهب اجتماعى ، أسلوب فى الحكم ، أما
الأساس الفلسفى فمتروك لاجتهاد المريد ، له أن يعتنق
المادية أو الروحية أو حتى الصوفية ، والأساس
الاجتماعى شيوعى فى جوهره يقوم على الملكية العامة
والغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة
والغاء أى نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى فى
التعامل « من كل على قدر طاقته ولكل على قدر
حاجته » ، أما أسلوب الحكم فديموقراطى يقوم على
تعدد الأحزاب وفصل السلطات وضمان كافة الحريات
— عدا حرية الملكية — والقيم الانسانية ، وبصفة عامة
يمكن أن تقول ان نظامى هو الوريث الشرعى للإسلام
والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية . .

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير
وأنا أقول :

— هاك رأيي ..

فتناوله بدهشة وهو يتمتم :

— حقا ؟

فقلت بإصرار :

— ولن تخيفني نعوتك المشهورة ، برجوازي ..
تصالحى .. تجميعى ، فمن حقى أن أنشئ مذهبا
جديدا اذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة ..

فلاحت في عينيه نظرة ارتياح وقال :

— بشرط أن تنشئ حقا لا أن تلفق ..

فقلت غاضبا :

— جميع المذاهب أخذ وعطاء ..

وقرأ سعد كبير المخطوط في مكتبى حتى فرغ منه في
حوالى الساعتين أو أكثر ثم تنهد طويلا وتمتم :

— لا فائدة !

فانتظرت متوثبا فعاد يتمتم وكأنما يحدث نفسه :

— سمك لبن تمر هندي !

فقلت له :

— أفصح ..

فقال بعصبية :

— تلفيق .. أحلام يقظة .. خيال .. تجميع ما لا

يجتمع .. لا شيء ..

— أهذا هو رأيك النهائى ؟

- ماذا تتوقع ؟
- أتوقع أن تقتنع برأىي .
- ثم ماذا ؟
- ثم نكون جمعية .. هيئة .. حزبا ..
- فضحك ضحكة باردة وتمتم :
- يا للخسارة !
- فقلت محتدا :
- انكم مسلوبو الارادة والتفكير !
- فقال بجدية تامة :
- أنت تعلم على الأقل اننا جادون ، واننا نحمل رءوسنا على اكفنا ، واننا نؤمن بالانسان !
- انى اومن بالانسان أكثر منك ، لا اصدق أن مؤمنا حقا بالانسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتاتورى ، وانى جاد أيضا ، وعلى استعداد لحمل رأسى على كفى ..
- ماذا تنوى أن تفعل ؟
- سأكون جمعية أو حزبا ..
- وقام سعد كبير وهو يقول بفتور :
- لنا رجعة ورجعة ورجعة ..
- وقبل أن اشرع فى الدعوة الى تكوين الجمعية شاورت زوجتى فى الأمر فانزعجت جدا ، وكانت قد قرأت المخطوط بعناية ، وقالت :
- انك قانونى وتعلم أن دستور البلاد يعتبر الشيوعية جريمة .

فقلت :

— الشيوعية شيء ومذهبي شيء آخر ..
— انك تدعو الى نظام اجتماعي شيوعي وهذا هو
ما يهم القانون وواضعيه ..

— يمكن أن أغير صياغة البند الثاني فاني أجد مثلا
أن كلمة الاشتراكية مقبولة ثم اننى مؤمن بالله رغم
أننى لا أريد فرض الايمان على أحد ، وأخيرا فأننى
مستمسك بالنظام الديموقراطى كما يمارس في الغرب ،
ألا يبعد كل ذلك الشبهة عني ؟

— لا أظن يا عزيزى ، فانى أراك في الواقع شيوعيا
قحا في الأمر الجوهري الذى يهم من يملكون ومن
لا يملكون ..

— المسألة أنك يا هدى لا تؤمنين بى ..
— انى ديموقراطية ، وأرى الديموقراطية نظاما
لا ينقصه كى يبلغ الكمال الا الرعاية الانسانية
لجماهير الشعب ! ، وانه لا يداخلنى شك في أن المواطن
الانجليزى مثلا يتمتع بحياة أفضل من المواطن
الروسى ..

— أما أنا فلا أشاركك الايمان بذلك ..

فقلت بشيء من الاستياء :

— حسن ، طالما اتفقنا في كل شيء ، والآن أن لنا أن
نختلف !

وكان سعد كبير يحاول من ناحيته اقناعها
الماركسية .

كان الأصدقاء يتناولون العشاء كثيرا على
مائدتنا ، ودعوت محمد شكرون معهم ولكنه لم يرتح
الى صحبتهم وتلقى مناقشاتهم بالتناوب .

وأظن أنه يجب أن تعرف شيئا أكثر عن سعد كبير ،
لقد كان أحد الأصدقاء الذين يجتمعون في مكتبي
للمناقشة ، يمثلون في مجموعهم جميع المذاهب حتى
المذهب الاقطاعي البائد ، ولكنه كان أشدهم حماسا
وتفاعلا مع مصيري ، كان محاميا مبشرا ، راسخا في
مادته ، ذا ثقافة واسعة ، ومقدرة في الجدل والمحاضرة ،
وكان ذا طبيعة حادة متماسكة ، شديد اليقين بما
يؤمن لحد التعصب الأعمى ، من الذين يعملون بكل
قواهم في اتجاه واحد ، ولا يتوانى عن تحطيم خصمه
بكل الوسائل البلاغية والمناورات الغريبة التي تثير
ثائرة من يحترم العقل ويقدره مثلي .

وقد لمحت في عيني هدى اعجابا به واستسلاما
لجدله الحماسي العنيف .

وذات يوم قال لي محمد شكرون :

— أصحابك لا يعجبونني . .

فقلت له متوددا :

— ولكنهم طيبون .

فقال بفتور :

— ربما لكن المدعو سعد كبير ليس بالطيب .

— ولكنه رجل ممتاز بكل معنى الكلمة .

— ربما . . لكنه أنكى مما يجب .

فضحكت مؤمنا بقوله فعاد يقول :
— لا تفتح بيتك لكل من هب ودب •
فأنست من صوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير
فاشتعل وجداني وسألته :
— ماذا تعنى يا شكرون ؟
فقال متهرجا :
— المسألة أننى لا أرتاح إليه •
فقلت بحدة شديدة :
— أفصح !
— انه من النوع المعتد بنفسه ولكنه ليس أهلا
للثقة •

— انك تقصد أشياء أكثر من ذلك ••
— أبدا ، وأقسم على ذلك برأس الحسين !
بعد ذلك الحوار لم أرجع الى طمأنينتى السابقة ،
وجعلت أراقب ما يدور حولي بدقة وسوء ظن ، وفي
الوقت نفسه أثبت على كرامتى أن أغير من نظام
الأشياء ، ولو بدر منى أمر كهذا لأغضبت بلا شك
سيدة أبيه مثل هدى ، ولسقطت في نظرها ، ولكنى
جعلت أراقب وأحترق من شدة الانتباه والقلق ، كان
ينهمك في الحديث معها فتنهمك معه ، ووضع لى أن
أسلوبه في الحوار يعجبها ويبعث فيها حيوية دافقة
وأنها تبدو في شوق دائم الى المزيد منه •
وقلت لها فى أعقاب سهرة :
— لن أدهش اذا اعترفت لى فجأة بأنك شيوعية !

فابتسمت متسائلة :

— أغرك اقبالي على حديثه ؟

— وتأثرك به ..

— إنه شخص ممتاز ولذلك فأننى أرثى له !

كانت هدى فى ذلك الوقت فى الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير فى الثلاثين ، ولم يكن بقى فى قلبى لها الا صداقة عميقة ، ورغم ذلك ركبنى الهم ، ورحلت أتساءل عما عناه محمد شكرون ، هل رأى أكثر مما رأيت ، هل كتم عنى أشياء ، هل تعانى هدى أزمة من أزمات الشيخوخة ؟ ، ولكنها كانت وما زالت مثالا للعقل والرزانة ، ولم أعثر من ناحيته على إشارة واحدة تستحق الريبة ، لا إشارة ولا حركة ولا كلمة ، ورغم ذلك كله اهتز عقلى المقدس ، وسقطت فريسة لانفعالات مبهمة ...

ثم اجتاحتنى المأساة كأنها زلزال غير مسبوقه بأسباب واضحة ..

★ ★ ★

وصمت مليا فتساءلت :

— المأساة ؟

فضحك ولم ينبس فعدت أتساءل :

— المأساة ؟ .. ماذا قلت ..

— وقعت المأساة وأنا أتأهب لتكوين الحزب ..

— ثم ماذا ؟

— وأتھياً لخوض غمار المعركة متحدياً اليسار واليمين معا .

وواصل حديثه متنهدا :

— كنا مجتمعين فى مكتبى أنا وسعد كبير منفردين ، وجرى الحديث ، حادا من ناحيته كالعادة وحادا من ناحيتى على غير العادة . .
قال ثائرا :

— انك تقوهم أنك صاحب مذهب ميتافيزيقى اجتماعى سياسى ، ان أى مذهب خلىق بأن يستغرق عمرا كاملا فى تكوينه ، ولكن القارئء يطلع على المذاهب كلها فى عام أو عامين ، وقد يتراءى له أن يقوم بعملية انتخاب من المذاهب يظنها تفكيرا وهى ليست الا عملية انتخاب للجمع بين متناقضات يستطيعها أى مخلوق ، ويمكن بهذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الالميين فى العالم !

وصحت به على غير توقع منه :

— وقح . . قليل الأدب . .

نظر الى بذهول وتمتم :

— ماذا ؟

فصحت باصرار :

— وقح . . قليل الأدب . .

فتساءل بحنق :

— أنسيت أنك تخاطب أستاذك ؟!

وثبت عليه .



لطمته ، لکمنی ، اشتبکنا فی صراع مخيف ، لم
يوجد من يخلص بيننا ، كنت أقوى منه وكان أكثر
شبابا ، ولما بدأت ألهث تناولت قطاعة الورق ..

★ ★ ★

• وصمت مليا •

• ورحلت أتخيل المنظر •

• ثم واصل حديثه •

— صورة وجهه لا يمكن أن تنسى ، أعنى بعد أن
غرزت النصل الحاد في عنقه ، وجهه وهو ينطقىء
هابطا الى قرارة الظلمة ، وهو يتخلى عن المعركة
ويستسلم للمجهول ، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء
والمجد وكل شيء •

هتفت

— قتلت يا جعفر ؟

— أصبح جعفر الراوى قاتلا •

— يا للخسارة !

— وقفت أتأمل جثته الملقاة بين المكتب والكنبة
الجلدية في ذهول بارد سرمدى وأنا أشعر بأننى تخففت
دفعسة واحدة من كافة أعباء الحياة وانفعالاتها ثم
غصت فجأة الى أعماق دنيا العلم فرأيت من كوة في
جدارها المتهاافت شبح المأساة وهو يجرى بعيدا عنى ،
في كون آخر مضاد لا تربطنى به صلة بشرية ، وسمعت
صوتا ، لعله صوتى أو صوت آخر يهتف مذبوحا
« يا عقلى المقدس ، لماذا تخليت عنى ؟ » •

— يا للخسارة ..
— من رئاسة حزب الى التأييد !
وبعد صمت ثقيل قصير سألته :
— أكان للقتل ما يبرره ؟
— من ناحية فللقتل ما يبرره دائماً ومن ناحية
أخرى فلا شيء يمكن أن يبرر القتل .
— أعنى هل وجدت في شكوكك ما يبرر القتل ؟
— لا شيء ألبتة ، صدقنى ، وجاء انهيار زوجتى
حزنا على مؤكدا لحماقتى ، كأن المأساة قد وقعت
لتسخر من عابد العقل ومقدسه ، هذا كل ما هنالك ..
— وهل ورد في المحكمة ذكر لشكوكك ؟
— كلا ، أبيت ذلك كل الالباء ، فصور الموضوع
في المحكمة باعتباره نزاعا بين شيوخ عيين أدى الى
القتل .. ، وكنت في السجن أصر على اعتبارى مجرما
سياسيا ولكنى اعتبرت مجرد قاتل ، وحتى اليوم فانى
مصر على أنى مجرم سياسى ، ما رأيك ؟
— لعلك مجرم نصف سياسى !
— ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلا ..
— ربما .. ولكن ماذا كان موقف جدك ؟
— قبيل الحادث بأيام جاءنى محمد شكرون
وأخبرنى أن جدى مريض جدا ، واقترح على أن أزوره
مصطحبا زوجى وأبنائى ، شاورت هدى فى الأمر
فرحبت به جدا ، وأجلت الزيارة لىوم الجمعة ولكن
الجريمة وقعت مساء الخميس ، ولم يصلنى من ناحيته

رسول أو رسالة ولا عرفت حتى ان كان علم بجريمتي
المهم أنى طالبت في السجن باعتبارى مجرما
سياسيا رغم أنه لا توجد تفرقة في المعاملة بين المجرم
السياسي والمجرم العادي ، واشتهرت بذلك فصرت به
دعابة ، واعتبر أحيانا شغبا تعرضت بسببه لعقوبة
الجلد ، وقد زارتني هدى مرة واحدة ..

فتساءلت باهتمام :

— هل انقطعت بعد ذلك ؟ .. ؟

— انتقلت الى جوار ربها !

ثم واصل :

— حزنت جدا ، وقلقت على الأبناء جدا ، ثم أخبرني
شكرون أن عمّة والدتهم تكفلت بهم وأنهم سافروا
اليها في المنيا ليبقوا تحت رعايتها ولا شك أنهم نسوني
سريعا كما نسيت أمي في مثل سن أكبرهم ، وفي زيارة
تالية أخبرني محمد شكرون أنه سيقوم برحلة فنية في
شمال افريقيا فانقطعت أخباره عني حتى اليوم ، مات
جعفر الراوى ومات العالم الخارجى ..

واصلت الجهاد في السجن داعيا الى مذهبى الجديد
فاضطدمت بجهل وسلبية وسخرية ، حتى مأمور
السجن دعوته ، وكان يعطف على لأصلى ومهنتى
وسوء حظى ..

وفي السجن ضعف بصرى وأصبت بأمراض شتى .
وخرجت وحالى كما ترانى أمامك .

خرجت وحالي كما ترانى أمامك ، خرابة من
الخرابات ..

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من الذكريات
لا تصدق .

ولكنى لم أفقد صفاء الذهن ولا قوة الاصرار ولم
ينطفئ فى قلبى سحر الآراء .

وقلت لو أعثر على محمد شكرون فقد أجد فيه
الخيوط الذى يوصلنى الى قلب الأشياء ، ولكنى لم
أعثر له على أثر ، ولم أصادف أحدا يعرفه وكأنه لم
يطرب بصوته جيلا من الناس ، وفى معهد الموسيقى
الشرقى أخبرنى أحدهم بأنه - محمد شكرون - أقام فى
المغرب ثم انقطعت أخباره .

وذهبت الى قصر الحلمية فوجدت مكانه عمارة
شاهقة تملكها شركة تأمين ، وكنت قد ورثت عن
زوجتى مبلغا محترما من النقود أنفقت أكثره فى السجن
فى شراء السجائر وخلافه ولم يكذب ببقى منه شيء
ذو بال .

وذهبت أيضا الى عشش الترجمان ولكنى لم أجد

لها أثرا ، لقد اجتاحتها العمران فتحولت الى حى
وبستان ومحطة بنزين .

وعثرت على زملاء غير قليلين ، بعضهم على المعاش
وبعضهم ما زال يعمل فى الحمامة ، وأصارحك بأنه لم
يتهرب منى أحد ، واستقبلنى بعضهم بحرارة ، منهم
من لا يزالون على حماسهم الأول لعقائدهم ومنهم من
شغلته الحياة ومطالبها .

ولكن أين أبناء مروانة وأين أبناء هدى ؟
وقررت أنه لا خير يرجى من الاهتداء اليهم وأتبنى
يجب أن أتركهم دون ازعاج ، ويطيب لى أحيانا أن
أتخيل حيواتهم وحياة أحفادى منهم ، أجل يوجد بينهم
الآن قطاع طرق وقضاة ولعلمهم أكثر مما أتصور ،
ولعلى أصادفهم فى تخبى فلا أعرفهم ولا يعرفوننى ..
ولما فرغت من هذه الأمور العاجلة فكرت فى امكان
استئناف الجهاد فى سبيل مذهبى وتكوين الحزب ،
غير أننى اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها ،
منها سنى الطاعة وضعفى الشديد ، وسحتى التى
أصبحت تثير الرثاء بل وأحيانا الاشمئزاز .

أن الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصية ذات
قوة وجاذبية معاً ، فضلا عن ذلك فإن ميدان السياسة
حافل بالشخصيات ذوات الحيوية والتأثير فقلت
أسجل نظريتى فى كتاب فإن أعجزنى ذلك ولا بد أن
يعجزنى فأننى سأدعو اليها حيثما أسير ، وقد يتبناها
عنى شخص أقدر على نشرها وتحقيقها منى ..

عند ذاك بدا لى أنه لم يبق لى الا الراحة القهرية
القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية ..

★ ★ ★

ولان بالصمت مليا ثم تمتم بهدوء :
... بطالعنى من الماضى وجه الراوى ..
هممت بالحديث ولكنه بادرنى قائلاً :
... لم أكن أشك فى وفاته ، ولكن ما سأل ثروته
وقصره ؟ .. ووقفت تحت سور القصر الشاهق وهو
قائم كالجبل ، وتسلفت الى العطفة نحو الباب الكبير
فأدهشنى أن أجده مواربا ...
وصمت لحظات ثم قال :

... دفعت الباب قليلا ودخلت قرأيت منظرا لم
أتوقعه ، لم أتصوره ، لم يجر لى فى خاطر ، لا الحديقة
هناك ولا السلاملك ، لا أخلاط العبير ولا زقزقة
العصافير ، ولكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات
ونفر من الصعاليك ...
فهمت مستغربا :

... كيف .. هل هدم ؟

... لا شىء الا الخراب يحيط به جدار شاهق وباب
عظيم ، ونظر الى الصعاليك بحذر وارتياح ، فضربت
الأرض بقدمى ، ورحت أبحث عن أحد حى من مريدى
جدى ، وفى أثناء بحثى وتجوالى علمت أن الراوى
توفى بعد سجنى بعام واحد ، ويأنه أوقف ثروته كلها
على الخيرات دون أن يخصص لى مليما واحدا ولا

لأحد من ذريتي ، أما القصر فقد ألقيت عليه قنبلة في
أحدى الغارات الجوية ثم أزيلت أنقاضه ، هذه هي
القصة كلها من أولها لآخرها ، وأدركت في الحال أنني
لن أظفر براحة في الراحة القهرية القصيرة التي تسبق
الراحة الأبدية ، ولكنني قررت أن أجعل بيتي في
الخرابة المتخلفة عن قصر جدى ، وانى أنام فيها عادة
ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك .
وضحك ضحكة قصيرة ثم سكت وهو ينفخ ، فقلت
برثاء :

— شيخوخة غير سعيدة .

فهمت بكبرياء :

— كلا ، انى أرفض الرثاء والعطف ، تذكر دائماً
أنك تخاطب عظيماً من الرجال ، ومن أسباب عظمته
السحرية أنه قادر على التكيف مع أقسى الظروف
والأحوال فيخوضها بكل تعال وابتسام !
وأمنت بقوله ولكننى قلت :

— على أى حال فإن الاعانة الشهرية التى ..
فقاطعتنى بحدة :

— لقد اتخذت فيها قراراً !

— لم أظنك جاداً فيما قررت ..

— ولكنى جاد كل النجدة !

— أتعنى أنك لن تكتب الالتماس ؟

— قطعاً !

— ولكنه الجنون عينه ..

— سمه كما تشاء ، لقد حرمني الراوى من تركته
وانى أرفض أن أتسول منها مليما واحدا !
— ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان
ما تنفذ النقود المتبقية لديك ..
— أعرف هذا حرفا حرفا ولكنى أعند من الراوى
نفسه ..

— دعنى أكتب الالتماس بنفسى .
— انى أرفض .
— ولكن ...
— انى أرفض الكلام حول هذا الموضوع ...
وساد الصمت ، وكان التعب قد نال منه محدثا
كما نال منى مستمعا ..
وتشاءبت فضحك قائلا :
— انى لا أتناعب قبل الفجر .
فتمتتمت بفتور :
— عقارم .

— انى صعلوك متجول ، أغادر خرابة الراوى
لأهيم على وجهى فى الطرقات ، من مرجوش الى
الخرنفش الى النحاسين الى خان جعفر ، فى كل مكان
لى ذكرى ونجوى ، وفى الحلمية ذكريات ، وفى ميدان
باب الخلق يخفق قلبى ، وفى كل مكان أدعو دعوة
صريحة الى مذهبى ، أدعو البشرية الى انقاذ نفسها .
— مذهبك ؟
— أجل ..

- علانية ١٩
— أجل ..
— يجب أن تحذر المتاعب .
— انى لا أخشى المتاعب ..
وقلت لنفسى ان هيئته لا توحى بأى جدية فلا خوف
عليه .
واستقمنا الى الصمت مرهقين .
وفي لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذن
يعانق أمواج الظلام .
وتمطى جعفر قائلاً بصوته الرنان الخشن :
— آن لنا أن نذهب ..
سرنا جنبا الى جنب ، اخترقنا القبو الى الميدان .
وهمس جعفر :
— لتمتلىء الحياة بالجنون المقدس حتى النفس
الآخر .
وكان رأسى يطن بحديث الليل الطويل .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عبث الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليلي	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكرية	١٩٥٧	رواية
الرص والكلاب	١٩٦١	رواية
السحان والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سوء السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثمرة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
مصرامير	١٩٦٧	رواية
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	مجموعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		الرابعة عشرة
		الثانية عشرة
		الثانية عشرة
		الحادية عشرة
		التاسعة
		الثامنة
		الخامسة
		الثامنة
		السابعة
		السابعة
		السادسة
		الخامسة
		السابعة
		السادسة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	السابعة ١٩٨٧
شهر العسل	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢
المرايا	١٩٧٢	الخامسة ١٩٨٠
الحب تحت المطر	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠
الجريمة	١٩٧٣	الخامسة ١٩٨٤
الكرنك	١٩٧٤	السابعة ١٩٨٦
حكايات حارتنا	١٩٧٥	السادسة ١٩٨٦
قلب الليل	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١
حضرة المحترم	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	١٩٧٧	الرابعة ١٩٨٥
الحب فوق مضبة الحرم	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
الشیطان يعقد	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
عصر الحب	١٩٨٠	الثانية ١٩٨٧
أفراح القبة	١٩٨١	الثالثة ١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	الثانية ١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
القجر الكاذب		مجموعة

الاستاذ عبد الحميد جوده السحار

ام العروسة	احسن بطل الاستقلال
وكان مساء	ابو ذر القفاري
اذرع وسيقان	بلال مؤذن الرسول
ارملة من فلسطين	في الوظيفة
الحصاد	سعد بن أبي وقاص
القصة من خلال تجاربي الذاتية	همزات الشياطين
جسر الشيطان	ابناء ابي بكر الصديق
ليلة عاصفة	الرسول « حياة محمد »
النصف الآخر	في قافلة الزمان
السهول البيض	اهل بيت النبي
وعد الله واسرائيل	اميرة قرطبة
عمر بن عبد العزيز	التقاب الأزرق
الحفيد	المسيح عيسى بن مريم
ذكريات سينمائية	قصص من الكتب المقدسة
هذه حياتي	الشارع الجديد
كشك الموسيقى	صدي السنين
خفقات قلب	حياة الحسين
صور وذكريات	قلعة الأبطال
	المتنقع

القَصَصُ الدِّيْنِي

« للأطفال »

في ١٨ جزءا	قصص الانبياء
في ٢٤ جزءا	قصص السيرة
في ٢٠ جزءا	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

١ - ابراهيم ابو الانبياء	١١ - الهجرة
٢ - هاجر المصرية ام العرب	١٢ - غزوة بدر
٣ - بنو اسماعيل	١٣ - غزوة احد
٤ - العدنانيون	١٤ - غزوة الخندق
٥ - قريش	١٥ - صلح الحديبية
٦ - مولد الرسول	١٦ - فتح مكة
٧ - اليتيم	١٧ - غزوة تبوك
٨ - خديجة بنت خويلد	١٨ - عام الوفود
٩ - دعوة ابراهيم	١٩ - حجة الوداع
١٠ - عام الحزن	٢٠ - وفاة الرسول

السحر والفكر الاسلامي

دراسة موضوعية لادب السحر ، وغلبة الروح الاسلامية على
كل ما كتبه ، سواء اكان الموضوع الذي يتكلم عنه اسلاميا ام كان
قصة من الحياة اليومية العادية - بقلم الاستاذ مامون غريب .

مكتبة مصر
٢٠ شارع كائناتى - النجاة

الشمس ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سميد جوده السحار وشركة

To: www.al-mostafa.com